ستة أشباح وأنثى

رواية

تأليف

مى الحجار

طبعة ٢٠٢٠

الحجار، مى.

ستة أشباح وأنثى: رواية /مى الحجار؛- الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٩ .

٢٣٢ ص ,٢٠ سم

تدمك: ٧٩٧٧ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

ستة أشباح وأنثى

رواية

تأليف

مى الحجار

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٩/٢٠٣٦٨

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٧٩٧-٧

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠٢٠

الكتاب : ستة أشباح وأنثى

المؤلف : مى الحجار

الغلاف : عبدالله نصر

الناشر: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكـس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

مقدمة

ولما تهت بعيدًا بين أوراقي ودفاتر أشعاري.. سمعت أصوات تنادني من فوقي.. وعن شمالي وعن يميني.. إنهم سكان مدينة بداخلي.. سكانها أبطال حواديتي تلك التي كتبتها وتلك التي أطمع أن يسمح لى القدر بسردها ولو حتى بيني وبين دواخلي.. إنهم عالمي وكياني ووجداني.. إنهم «أنا» في عدة صور وأزمنة مختلفة.. أحبهم فَهُمَ مني.. ويحبونني لأني رابطهم الوحيد للخلود في الأذهان والأسطر.. إنها مدينة مذهلة.. لها قوانين حازمة.. رغم أنها مدينة الخيال.. الناس هناك طعامهم كلماتي.. وأفعالهم خيالاتي.. وأنهارهم دموعي.. وأعيادهم ضحكاتي.. إنهم الونس والدنس الذي يسكن نفسي.. ياويلى !

تعريف باسم أنثى الحدوتة «يارا»:

كلمة في اللغات القديمة كانت تعني في الفينيقية حبيبتي وكذلك في الكردية معناها الحبيبة.. و «يار» بحذف آلاف معناها الحبيب.. وفي الأمزونية ابنة الغابات.. وفي الفارسية، ابنة الربيع.. وفي المصرية القديمة، مملكة السماء.. ومن معانيها الطاهرة، والمحبوبة.. وتعني الفراشة الصغيرة ويارا اسم من أسماء مدينة القدس ومعناها أيضًا الفتاة الجميلة.. ويعتقد أن كل من تحمل هذا الاسم تكون مباركة، ويارا ترمز للإنسانة الجميلة الطاهرة المحبة الخجولة المطيعة.. وأيضًا العنيدة والقوية وبالتركية تعني الجرح وبالروسية تعني الثلج وبالفارسية تعني القوة والجرأة والشجاعة وبالأفغانية تعني الصديق.. وباليونانية واللاتينية القديمة تعني الربيع وكذلك بالسلفاكية.. أمّا بالسنسكريتية فتعني الضوء الساطع، وبالماليزية تعني أشعة الشمس وزهرة الربيع، وفي البرازيلية تعني سيدة المياة.

●●●

المهنة شبح !

لدي أفكار كثيرة في رأسي..

غزيرة كالعشب البريّ..

لـدي خيـالات واسـعة، تمتـد لتفـرش العالـم كلـه بسـجادة خضـراء حريريـة مـن خيالـي.. ووهبـت لونًـا لنجمـات السـماء.. فواحـدة ترسـل ضـوء أحمـر وأخـرى أزرق وثالثـة أخضـر.. حتـى السـحب لونهـا بنفسـجي والسـماء منحتهـا لـون «بمبـى» يسـر الناظريـن.. والشـمس في دنيـاي دائمـة الأشـراق.. أنـا أكـره الليـل.. حتـى الثعابـين نزعـت منهـا سـمها وجعلتهـا في دنيتـي الخياليـة الواسـعة مخلوقـات لطيفـة ناعمـة يلهـو بهـا الأطفـال وتلتـف حـول أعنـاق مـن يحملهـا في حميميـة.. أمـا الشـيطان ذاتـه فقـد أعتـذر لأدم وسـجد لـه.. ليـس لأن أدم كان يسـتحق السـجود لـه ولكـن حبًـا وطوعًـا لمـن أمـرى الشـيطان بالسـجود !

عندمـا أفتـح عينـي، بكسـلهما، ونعاسـي.. أجدنـي لـم أنم كالعـادة والشـمس أشـرقت ولكـن..

على أية حال

صباح الخير لكل شياطين الأرض

صباح الخير لكل متمردي الأرض

صباح الخير لكلمة لا التي خلقت

ليقولها من رفض تصديق الوعد

أي وعد.. لا يهم !

يا إلهي.. كل يوم أدفن جثة زوجتي ومع ذلك استيقظ لأجد جثتها المتعفنة نائمة بجانبي في الفراش.. لقد تعبت من الحفر يوميا ودفنها.. ويومًا عن يوم تزداد حالة الجثة تعفنًا ورائحة كريهة يا آلهي العزيز أنجدني من هذه الرائحة البشعة.. هذه المرأة مقرفة في الحياة والممات.. تبأ لها ولكني سأنام قليلاً وبعدها سأستيقظ منتعشًا وأحفر لها ثانيتًا حفرة أعمق وأكبر وأدفنها بها.. لن تفلت من قبرها هذه المرة.. مقرفة يازوجتي مهما فعلت لك !.. لقد أكرمتك وقمت بدفنك بعد قتلي لك مباشرة وأخترت لك مكانًا رائعًا للدفن.. في حديقة منزلنا لا أدري أيتها الغبية الحمقاء لما رفضك لهذا المكان الهادئ وهربك منه يوميًّا.. متعبة أنت كعادتك.. ماذا أفعل لأضمن بقائك حيث أدفنك.. هل أقيدك بسلاسل حديدية حتى لا

تهربي كل ليلة من قبرك ياملعونة وتأتى خلسة لتزاحمني النوم في سريري لا أظنك تشتاقي لي أيتها الخائنة.. لتعودي لي.. هل تشتاقي احتضاني لك.. لا أظن !.. وتشتاقي لقبلاتي المحمومة فوق جسدك الملوث بخيانتي.. خيانة زوجك الذي بطريقته.. أحبك!.. لا أظن!.. تبأ لك.. أنا لم أعد أفعل شيئًا في حياتى سوى دفنك كل يوم!

أعطي ظهره لجثة زوجته النائمة بجواره على سرير حجرة نومهما وحاول النوم.. ولكن النوم كان كالعادة محرمًا عليه كثدي أمه.. لقد فطم عن النوم منذ فترة طويلة لا يعرفها.. مع أنه كان معتاد الذهاب لسريره كل يوم بعد منتصف الليل قاصدا النوم والراحة ولكن النوم لا يأتى أبدا.. وهو مهما أستيقظ لا يشعر بتعب ولا بجهد.. حتى ملابسه صارت لا تتسخ مهما ظل يرتديها ولا تنبت عن جبينه قطرة واحدة من العرق مهما تجول حول بيته الواسع المترامي الأطراف وذقنه توقفت عن النمو لسبب مجهول فصار دائمًا حليق الذقن!.. فكر في نفسه.. ما يحدث له شيءٌ غريب.. ولكن لا يهم.. فهو منذ فترة لا يحمل هَم شيء حتى الاستحمام أو الحاجة للأكل أو الرغبة في النوم أو حتى الرغبة في التبول.. وهذا شيء أسعده للغاية.. ولكن ما يؤلمه حقًا زيادة حاسة السمع لديه

وحاسة الشم.. فأحيانًا يتنسم عبير إحدى الفلاحات في بيتها الذي يبعد عن بيته عدة كيلو مترات وهي تضع لزوجها عطر ريفي رخيص لتبدو مُساءً في عينيه أجمل.. أو يسمع صوت رجل عجوز يغني بصوت قبيح قبل شروق الشمس أغنية سيد درويش «صبح الصباح فتاح ياعليم والجيب مفهش ولا مليم».. وقد يكون هذا العجوز أيضًا يبعد عنه كيلو مترات.. هو لا يدري لما يسمع بعض الناس ويشتمهم والبعض الآخر لا!

أنه يتمنى النوم ولو ساعة.. هو لم يعد يذكر متى نام آخر مرة.. أنه يدعى النوم كل ليلة ويدخل حجرته مساءً ويستلقي على سريره ويحاول النوم ولكن هيهات هيهات أن ينام دقيقة واحدة.. فيغمض عينيه حتى الصباح بجانب جثة زوجته المتعفنة وينتظر الصباح بفروغ الصبر حتى يأتي!

في الثالثة صباح سمع صوت جديد على أذنه.. أنه صوت طفلة تبكى.. فقام من مكانه مسرعًا يبحث عن مصدر الصوت.. فتش البيت المكون من طابقين.. طاف بين حجرات بيته.. ففي الطابق الثاني حجرة نومه وحجرتين بجانبها وطرقة طويلة نهايتها صالون صغير.. ولم يجد الطفلة الباكية في هذا الطابق.. فنزل إلى الطابق الأول.. وفتش قاعة البيت الرئيسية التي كانت يومًا تعج بالضيوف والأصدقاء والأحباب.. وأيضًا

لـم يجـد شـيئًا.. ففتـح بـاب مطبـخ البيـت الكبيـر فلمـح رضعـة طفـل محضـرة في زجاجـة دون غطـاء ولازالـت سـاخنة ويتصاعـد منهـا البخـار.. ولكنـه لـم يـرَ أي شـيء آخـر ملفـت للنظـر وسـأل نفسـه.. لمـن هـذه الرضعـة ومـن حضرهـا ولمـن ؟!.. وحـاول أن يتذكـر.. ولـم يتذكـر شـيئًا.. فحـاول مـرار تذكـر مـن كان يعيـش معـه في البيـت غيـر زوجتـه.. ففشـل في المعرفـة والوصـول لإجابـة لتسـاؤلاته.. وهـب علـى رأسـه المحمـوم كومـة مـن أوجـاع الـرأس.. فأستسـلم لوجعـه وعـاد غرفتـه لينـام بجانـب زوجتـه الميتـة علـى سـرير زواجهمـا القابـع في حجـرة نومهمـا !

قتلـه الوجـع.. حتـى تمنـى الاختبـاء مـن ألمـه.. وبرغـم بشـاعة جثـة زوجتـه وجـد نفسـه يقتـرب منهـا في صمـت ويدفـن وجهـه في صدرهـا الميـت!

مـرت سـاعة وهـو علـى حالتـه هـذه.. وتعجـب من نفسـه عندما ذهـب صـداع رأسـه رويـدًا رويـدًا.. فرفـع نظـره لوجـه زوجتـه ببطئ وتأمـل حـال جثتهـا المـزري.. كانـت رأسـها مشـقوقة شـق صغيـر علـى جانبهـا الأيسـر.. وهنـاك كدمـة زرقـاء حـول عينهـا اليمنـة.. وشـفتها السـفلي التـي كانـت يومًـا ثيـر جنونـه شـوقًا لتقبيلهـا عندمـا تبتسـم وتلويهـا قليـلاً لأسـفل.. كانـت تقريبًـا سـوداء اللـون وبجانبهـا وأسـفل منهـا بعـض قطـرات مـن الدمـاء الجافـة..

وتعجب في نفسه لماذا لم تعد زوجته تهتم بنفسها كما كانت تفعل قبل أن يتزوجها.. لقد كانت أول مرة شاهدها فيها رائعة في كل شيء.. كانت رائعة في ملابسها.. في اختيار عطرها.. في طريقة نطقها لبعض الكلمات الفرنسية هنا وهناك بين كلماتها العربية التي تنطقها بلهجة ملهمة للشعراء والرسامين وكل فناني العالم.. فقد كانت زوجته تستبدل حرف «الراء» في كلماتها بحرف «الغين».. كانت لذيذة ك «كراواسون» طازج.. وجميلة كزهرة وليدة.. وعاد يشتمها بينها وبين نفسه ويلعنها ويسأل نفسه لماذا تركت «جثتها» تتعفن وتصل لتلك الحالة المقرفة المزرية؟!

وسألها حيث تنام بجانبه على السرير بعدما جلس بجانبها نصف جلسة:

«ماذا سأفعل أنا الآن بعد أن أهملتى جثتك لهذا الحد السيء؟.. فقط لو كنت حافظتي على جمالك ورقتك لكنت الأن أسعد شبح رجل ميت على وجه الأرض وكنت سأكتفي بك ولو جثة!.. ولكن الآن كيف أقترب منك وأنت صرتي أقرب ما تكوني لعفريت في فيلم أجنبي له «ماكير» عالمي.. تفنن في تشويه ملامحه وإضفاء الدمامة عليه.. فأنا مفزوع من ملامحك حقًا ومن ملابسك التي انتشر عليها بقع دماء مرعبة» !

وذهب وجع رأسه تمامًا.. فقام من جانب زوجته ونظر في الساعة المعلقة على الحائط فوجد أنها الآن العاشرة صباحًا.. فالشمس مشرقة والجو دافئ وكل شيء ينبئ بيوم مثالي للتنزه بين الحقول ومشاهدة الفلاحات وهن يطهين طعام الغداء ثم يقمن بتنظيف منازلهن ثم يذهبن سريعًا للاستحمام وتلك هي الفقرة الأكثر مرحًا في يومه.. فهو يدخل أي بيت يريد.. ويشاهد أي شيء يريده به ولا أحد حتى يشعر بوجوده أو يراه.. أنه شبح سعيد الحظ كما يقول لنفسه.. وقرر أن يذهب مباشرة لبيت «هيام».. أنها امرأة رائعة الجمال.. بيضاء.. بدينة قليلاً.. عينيها زرقاء وشعرها أصفر.. جاءت من محافظة «المنصورة» وتزوجت هنا في محافظة «الفيوم».. أنها أشبه بحلوة صنعت لأهل الجنة.. ولكن هيام وقعت في يد «فرج» ذلك البغل الذي لا يقدر كنز الجمال الذي يملكه.. أنه قروى غبي لا يليق به امتلاك كل هذا الجمال الرجراج.. أنا أكره كثيرًا عندما يعتلي عرشها الأبيض.. عندما يلمسها ويحتضنها وهي بين يديه ناعمة طرية مستوية الجمال كاملة الرقة والعذوبة خاضعة مستكينة.. تحاول إرضائه وترى به عالمها وملاذها وهو في النهاية «فرج» ذلك القروى الأبله!

وانتظـر وانتظـر.. حتـى انتهـت هيـام مـن أعمالهـا المنزليـة اليوميـة، ثـم كقطـة بيضـاء ناعمـة جلسـت علـى أريكتهـا تتمطـى وترتـاح قليـلاً مـن مجهـود يومهـا...

ارتشـفت كـوب شـاي صغيـر ثـم قامـت لتعـد نفسـها لزوجهـا.. فهـو سـيأتي البيـت في خـلال سـاعة علـى الأكثـر.. فدخلـت حمامهـا الواسـع ونزعـت كل ملابسـها.. وتفحصـت نفسـها لحظـات في المرآة وأعجبهـا مـا عكسـته لهـا المـرآة مـن جسـدها.. بشـرتها البيضـاء وصدرهـا الناهـد وشـعرها الناعـم وعينيهـا الفاتنـة فأبتسـمت لروحهـا وفتحـت في خفـة صنبـور الميـاة السـاخنة لتزيـل عنهـا تعـب يومهـا وتعيـد الانتعـاش لخلايـا جسـدها الأبيـض!

في الحمـام اقتـرب منهـا يتأملهـا.. أنهـا جميلـة في عينيـه.. وعينـي أي شـخص يراهـا كمـا رآهـا هـو.. في حيـاء منـه قبـل كل شـعرة مـن رأسـها.. ثـم أخـذ ركـن مـن حمامهـا ووقـف يتأمـل حسـنها وأنوثتهـا.. لـم يحـاول لمـس جسـدها مـع علمـه أنهـا لـن تشـعر بـه أو تـراه.. أنـه يحترمهـا بطريقـة مـا.. فهـي أم لأربعـة أطفـال.. وحتـى لـو كان هـو مجـرد شـبح فهـو لـن يلمسـها فهـي تخـص رجـل غيـره.. حتـى لـو كان هـذا الرجـل قـروي غبـي.. حتـى لـو كان هـذا الرجـل «فـرج».. وعندمـا انتهـت هيـام مـن حمامهـا طبـع قبلـة أخيـرة علـى جبينهـا وغادرهـا.. إنهـا فقرتـه الأروع في يومـه.. مشـاهدتها وهـي تسـتحم !

عاد بيته في الخامسة مساءً بعد أن زار عدة فلاحات في بيوتهن.. واطمئن عليهن وعلى جمالهن وهن عاريات ولكن هيام تظل هي أجملهن.. فقط شاهدهن وهن يستحممن.. ولكنه لم يقبل أي منهن بشغف ك «هيام».. برغم أن «سعاد» رائعة أيضا.. سمراء فاتنة.. ولكنه حدد موقفه منذ زمن.. هيام وبعدها يأتى الجميع.. هي الأجمل والأكثر رقة وفتنة وعذوبة!

«فارس غبروش المنيوس».. هكذا هو لازال يذكر أسمه ويذكر أسم زوجته «ناهد متى رومانى».. لازال يذكر زوجته وهي تحمل الورود البيضاء وتسير بجانبه في ممر الكنيسة الطويل المزين ليلة زفافهما.. يذكر أدق تفاصيل تلك الليلة الجميلة التي تزوج بها أجمل فتاة في القرية.. وكانت تعمل معلمة في مدرسة بنات ابتدائية أنشئت حديثًا.. وتذكر أن كل شيء جمعه بها كان يومًا جميلاً حتى خانته.. هكذا ذكر نفسه.. أو هكذا أراد أن يتذكر!

بعد عدة سنوات من زواجهما.. عاد من عمله.. ليجدها في سريره مع رجل آخر.. وهذا الرجل الآخر كان صديقه.. هذا الجار اليوناني الذي تعود السكر معه وتدخين مخدر الحشيش.. هكذا ظن.. فقتلها.. ولكنه لا يذكر ماذا كان اسم هذا الصديق الغادر وإذا كان قتله هو الآخر أم هرب قبل أن

يتمكن منه ولا حتى يتذكر شكله وكأنه طيف غارق بين موجات بحر ذاكرته هو فقط.. وحاول تذكر من قتله هو فلم ينجح.. ربما يكون الصديق الخائن.. ربما.. وعاد يقول لنفسه لا يهم.. فهو شبح سعيد.. يفعل ما يريد وقتما يريد.. هو فقط يشعر بالملل والوحدة أحيانًا في حبسه الانفرادي هذا.. فهو يرى الناس ويسمعهم ويكلمهم وهم لا يشعرون به.. على أية حال هو شبح سعيد.. أكد لنفسه مرة أخرى.. يكفيه مراقبة هيام يومًا بعد يوم.. أنه ينتظر الشمس لتشرق ويذهب لبيتها.. أنها دون أن تشعر صانعة سعادته.. ليس لأنها جميلة الجسد فقط ولكنه يعشق وداعتها واستكانتها لزوجها القروي الأبله.. يعشق عطرها الساذج الذي تضعه مساءً وصباحًا لتغري زوجها.. يعشق حتى رائحة طبخها الشهي.. إنها تجيد صناعة كل الأكلات التي كان يومًا يمكنه أن يأكلها بشغف واقبال...

جلس في طريقه على القهوة وسط مجموعة رجال يبدو عليهم الحماس يتحدثون عن «أحمد عرابي» وعن ثورته التي يقودها ضد الخديوي توفيق والتدخل الأجنبي في مصر وعن «هوجة عرابي».. أنه لم يشارك يومًا في أي عمل سياسي وهو على قيد الحياة.. بل كان ينتظر من الجانب المنتصر في المعارك السياسية ويلعب في جانبه ليضمن الربح.. أنه تاجر والتاجر رأس مال.. ورأس المال جبان.. يرقص فقط لمن يؤمنه ويبارك نمائه!

وتسأل بينه وبين نفسه وهو يتنسم رائحة «الشيشة» الذي جاء القهوة فقط ليستمتع بها رغم كونه شبح.. لما يأخذ «عرابي» على عاتقه هم المصريين وحالهم المزري ومحاولة تطوير الجيش المصري.. فيما يمكنه الاستسلام للفساد بل واستغلاله لصالحه كما فعل الكثيرين غيره والحياة في قصر بعيداً عن الفقر والجهاد والمعارك.. لماذا يجاهد هذا ال «أحمد عرابى» كل هذا الجهاد وخاصة وإن الإنجليزى يفعلوا المستحيل لتشويه صورته وأضعاف موقفه في حين غياب وعي المصرى بحقه في الثورة على الظلم والاستعباد.. وتبسم ضاحكا في نفسه من حال المصريين.. إنهم شعب إن لم يجد من يظلمه ظلم نفسه وصنع طاغية من أوهامه!

عندما عاد إلى البيت صعد إلى الدور الثاني وقصد حجرة نومه.. ثم حمل زوجته دون جهد كبير بين زراعيه برفق لا يدل على ما ينوي فعله بها ونزل مسرعًا سلم بيته نزولاً للدور الأول ثم خرج من باب البيت الذي تركه مفتوحًا على مصرعيه تحضيرًا لنزوله يحمل زوجته وحتى لا يعوقه الباب عن الخروج بسهولة بجثتها التي يحملها.. وتوجه نحو الحفرة التي اتخذ منها يومًا قبرًا لزوجته وألقى الجثة كمن يلقي كيس من القمامة وبكل قوته وعزمه ردم عليها التراب الذي

كان مرتفعًا على جانبي الحفرة العميقة.. واستخدم صنبور المياة الموجود بحديقة البيت لملئ دلو كبير بالماء.. وسكبه ثلاث مرات فوق الحفرة التي ردمها مستعينًا بيديه وقدميه جيدًا بعد حبس جثة زوجته بها.. وتنهد تنهيدة طويلة رغم أنه لم يكن يشعر بأي تعب جسماني أو حتى مشاعر حزينة.. ثم جثى على ركبتيه وصلى بجانبها ودع لها الرب ورسم الصليب على حفرتها.. واستكان لحظة متطلعًا للسماء ومتمنيًّا أن لا تظهر جثتها مرة أخرى!

ووجدتني أعتصم في ساحة نفسي وحدي..

أحمل لافتة... أطالبني

كُف عن لمس جرحك..ليكف النزيف.. ووعدت نفسي أن لا أذكرها بخيانة زوجتى مرة أخرى !

طاف كثيرًا حول الحقول والأشجار الملتفة حول بيته.. وتذكر هذه المرة شيء آخر.. شجرته العجوز !

لقد كانت طفولته مثالية حتى سن العاشرة.. أب طيب حنون كريم وأُمّ شابة جميلة رقيقة الفعل والقول.. كل الفلاحات في البيوت المجاورة لبيتهم الكبير في خدمتها حبا لها وليس خوفا من والده مأمور القسم.. عيد ميلاده كان حدثًا عظيمًا

ويومًا سعيدًا لكل أهل القرية فالطعام والشراب هدية حتى لكل من يقترب من بيتهم.. ولكن في عيد ميلاده الحادي عشر أفسدت أمه الحفل وماتت.. كانت مريضة وملازمة سريرها مؤخرًا ولكنه لم يتصور أن تفعلها وتموت هكذا في سلام.. دون مقدمات طويلة.. دون أي تشبث من جانبها به وبحياتها.. أنها لا زالت في الخامسة والثلاثون.. إنها صغيرة وجميلة على الموت.. إنها أمه التي لا يريد أن يفارقها.. التي تهتم به وبأبيه.. فأبيه كان يحكم قريته في العلن ولكن أمه كانت هي العقل المدبر والكلمة المسموعة لأبيه.. لقد كان والده يستشير أمه في كل شيء وأي شيء.. يحكي لها أدق تفاصيل يومه خارج البيت وهي التي تنصح وتشور عليه بالحكم الصائب.. فولا مرة أنصت لها والده وخاب أمره.. ولا مرة نفذ حكمها وأشتكى أحدًا.. إنها امرأة حكيمة طاهرة القلب.. روحها متصلة بالسماء وبالملائكة !

انكسر والده بموت أمه.. وكل يومٍ كان انكسار أبيه يزيد ويزيد حتى خرج من خلف هذا الانكسار رجلاً آخر يختلف تمامًا عن ما عهده من والده من حنو وحنان.. رجل ينسى همومه بالخمر وتدخين «الحشيش».. فلم يستطع والده تعويض أمه بامرأة أخرى ولم تملأ عينه حواء أخرى مهما كانت جميلة

وذكية ومثقفة وابنة حسب ونسب.. فهو لم يطاوعه قلبه على لمس امرأة أخرى بعد حبيبته المتوفاه التي كانت لا تمس شيئًا إلا جعلته صافيًا نقيًا وهذا خلق عنده طاقة حزن لا قبل لمخلوق بتحملها فتحول لشخص قاسي مع الأيام يضرب ابنه الصغير لأتفه الأسباب ويعنفه ويحبسه في حجرته كثيرًا بلا طعام أو شراب ومع بلوغ «فارس» سن السابعة عشر كانت هناك كدمات وجروح منتشرة في كافة أجزاء جسده الهزيل وقتها رغم طوله ووسامة ملامح وجهه.. وكان يهرب من بيته الذي تحول من جنة لجحيم إلى الفضاء الواسع حوله بيتهم حيث الأشجار والمزروعات والطيور البيضاء التي يسميها الفلاحين «أبو قردان» إلا أنه كان يراها طيور وادعة هادئة الحال تسير كملوك ممسوسة بأرواح متكبرة !

هناك ليلة كل شيء لم يعد بعدها كما كان.. لازال يذكرها بأدق أدق تفاصيلها.. رسب في الإمتحان وعاد البيت ليجد والده في انتظاره وكان مدير المدرسة قد أخبر والده عن الدرجة السيئة التي حصل عليها في الإمتحان.. أنه لم يحب اللغة العربية يومًا.. فقط أمه كانت تذاكرها له وتبسط له الصعب منها ولكن أمه ماتت وعقله لم يستطيع أن يقبل المعلومات من غيرها كمدرس المدرسة ذلك الرجل البدين غليظ الملامح

والأفعال.. الذي طالما تسآل فارس بينه وبين نفسه من يربط لذلك الرجل رباط حذائه.. خاصة وأن هناك «كرش» ضخم للغاية يتوسط خصره يعوقه عن فعل ذلك.. «كرش» امرأة حامل في عشرة أطفال في شهرها التاسع.. سقط في امتحان اللغة العربية وعرف والده من ناظر المدرسة وأصر والده هذه المرة على عقابه أشد عقاب.. فبمجرد رؤيته لفارس عائدًا من المدرسة.. خطف «الكرباج» السوداني المعلق كزينة على الحائط وأنهال به ضربًا على جسد فارس الهزيل البنيان.. دون مقدمات.. دون حتى كلمات لوم أو شتيمة.. قيد بيده يد فارس وباليد الثانية انهال عليه جلدا بالكرباج على كل أجزاء جسمه.. كان والده غاضبًا منه ومن الدنيا ومن فشله في تربيه ابنه الوحيد وتعليمه.. تحمل فارس خمس ضربات قاتلات من والده وفي الضربة السادسة طفح الكيل به فدفع والده بقوة شيطانية لا يدري من أين أتى بها ليقع الأب أرضًا وتصطدم رأسه بطاولة سطحها رخامي فتنزف رأسه في الحال.. ترك والده مغمى عليه ورأسه جريح وفر هاربًا يرتعد خوفًا وهلعًا!

كان الليل قد حل عندما فتح فارس عينيه بعد غفوة صغيرة تحت الشجرة العجوز التي تعود النوم تحتها في حالة هربه من البيت ومن سوء عادات أبيه معه.. كان الخوف يعميه

عن تدبر حل لأزمته.. فلو عاد البيت حتمًا سيقتله والده لأنه دفعه وهرب.. ولأنه نتيجة دفعته هذه جرحت رأس والده جرح لا يبدو أنه صغير بالمرة.. ووجد في الظلمات المحيطة به صوت شيء ضخم قادم نحوه.. شيء يشعر به ويسمع حفيف تحركاته ولا يراه.. وبدأ هذا الشيء أو هذا الكائن المجهول يهمس له بصوت عميق يتسرب داخله كماء يشق طريقه في تربة عطشة:

«أدفنه قبل أن يقتلك.. أدفنه قبل أن يقتلك.. أدفنه قبل أن يقتلك»

بصعوبة وقف فارس على قدميه المتعبة يبحث عن مصدر الصوت فلم يجد سوى دخان كثيف تجمع في صورة قريبة لهيئة البشر ولكنها أبعد ما تكون عن البشر بل كانت دخان أسود تمثل أمامه.. له وجه ورأس وقدمين ويدين.. ووسطه هواء.. وينطق تلك الجملة ويعيدها ويكررها.. فنظر له فارس مفزوع.. وشعر أنه هرب من جحيم والده ليقابل هذا الشيطان وظن أن هذه نهايته.. ولكن هذا الكائن المجهول نظر لفارس نظرة لوم وقال له:

«أنا لك من الناصحين.. أدفنه قبل أن يقتلك.. مهما توسل لك.. أدفنه قبل أن يقتلك أو حتى يلقى بك في السجن ما تبقى من حياتك....»

فرد عليه فارس كالمنوم مغناطسيًّا وهمس:

«كيف؟.. هو سيقتلني لو عدت له مرة أخرى.....»

فرد عليه الكائن الدخاني الجسد:

«عد إلى بيتك ستجد والدك مغمى عليه كما تركته.. وغارق في دمائه.. أحفر له في حديقة البيت وأدفنه وهو سيموت سريعًا بمجرد أن تقذف عليه التراب.. حتمًا سيختنق من قلة الهواء.. وقل للناس أنه نزل القاهرة ليزور عمك ولم يعد.. لن يبحث أحد عنه.. الكل سيصدقك وسينتهي عذابك إلى الأبد فلن أسمح لأحد بعد الآن أن يؤذيك فأنت ستكون صديقي الوفي.. ولكني أريد منك هدية صغيرة مقابل القوة التي سأمنحها لك.....»

فرد فارس على الكائن الدخاني:

«لا أملك شيئًا.. أبي منع عني مصروف جيبي منذ زمن !»

«لا أريد أكثر من قطرات قليلة من دمك.. خذ هذه القنينة الصغيرة وأملأها بقليل منك.. أقصد من دمك.. وستكون بعدها رجل قوى الجسد.. وسيم الملامح.. عضله مفتول.. الكل يهابك ويهاب نظرات عينيك.....»

جرح فارس يده بسكين صغير كان في حقيبته المدرسية ويستخدمها عادة في تقطيع الفاكهة التي قد يحتويها أفطاره.. فوالده حطم له معظم أسنانه الأمامية أثناء ضربه المتكرر له وقذفه بأي شيء أمامه مهما كان حاد أو ثقيل.. وملأ على الفور الزجاجة بدمه فأخذها الكائن الدخاني من يده واختفى في لحظة!

وفجأة شعر فارس بالحياة تدب في جميع أجزاء جسده مرة أخرى.. فشعر بنفسه قوية خالدة.. وعاد للبيت في ترقب وحظر ووجد والده مغمى عليه كما تركه منذ ساعات.. لم يمت ولكنه كان عاجزًا عن الوقوف أو الكلام.. بالكاد يفتح أحيانًا نصف عين.. فتركه مكانه وذهب للحديقة واتخذ من حفرة حفرها له قبر صغير وعميق وألقاه دون أدنى إحساس بالذنب أو تأنيب الضمير داخلها ثم ردم عليه جيدًا بالتراب وصب الكثير من الماء.. ثم عاد البيت وشرع في تنظيفه وأزال كل أثر لدماء والده من على الأرض وأعاد كل شيء لمكانه.. فتح خزانة والده ووجدها تحمل الكثير والكثير من المال الذي صار يخصه وحده فاطمئن قلبه وصعد لينام وفي الصباح أخبر الجميع بأن والده ذهب أمس لزيارة عمه في القاهرة.. ومرت الأيام وطبعًا لم يصل الأب لأخيه وأكيد لم يعد لقريته.. واعتبر الأب مفقود !

ومثل فارس الحزن الشديد على أبيه الغائب.. بل وطلب من «الأب» في الكنيسة أن يصلى كثيرًا من أجل عودة والده الضائع كما صور لهم الوضع والجميع وقع ضحية دموعه الغزيرة التي نزفها ليداري على جريمته.. ولم يجد شيئًا ينمي به ثروة والده الصغيرة سوى التجارة.. وساعده أصدقائه اليونانيين الذين عرف عنهم تجارة النبيذ والأقمشة ومع الوقت صار يكسب جيدا ولذا قرر الزواج بمجرد بلوغه الثانية والعشرون من عمره.. تزوج ناهد.. التي قتلها فيما بعد، بعد خيانة وإهانة وهجر وحرمان حتى من كلمة طيبة.. فهو الذي خانها وليست هي ولكنه يكذب حتى على نفسه ويدَّعي أنها الخائنة وأنها تستحق مصيرها.. القتل !

أنه يكذب طوال الوقت يمثل التسامح والوداعة وهو أبعد ما يكون عن ذلك !!

وأخيرًا دقت الساعة الثانية عشر بعد منتصف الليل.. فحمل نفسه إلى سريره.. طاردًا أفكاره المزعجة.. طاردًا أبيه وزوجته وكل الأشباح التي تتراقص بداخله.. وعاد صوت الطفلة الباكية يرن في أذنه.. وهو يفتش عنه ولا يجد أحدًا !

يناير ٢٠١٩

الانتحار.. كلمة قد تبدو كبيرة المعنى بعيدة التحقق لأي شخص سوي النفس.. سليم الروح.. وقد كنت أحسب نفسي كذلك حتى وقت قريب.. كنت أظن قوة في نفسي وفي شخصيتي حتى حطمها «الحشيش».. نعم قطعة صغيرة من مخدر «الحشيش» وجدتها في يد ابني الذي لم يتم عامه الخامس «مازن» .. جعلتني أتمنى الموت.. ولأني لازالت شابة في الرابعة والثلاثون من عمري فقد ظننت بعقلي محدود الخيال أن الموت بعيد عني وأني لن أذوق حياض الموت إلا إذا قررت الانتحار!

إنه قرار يتطلب الكثير من الشجاعة وقوة الإرادة.. ولكني فقدت الإرادة منذ زمن.. منذ وجدت نفسي أثنى في مجتمع شرقي.. واكتشفت أني مراقبة طوال الوقت من أقرب الناس لي.. حتى يضمنوا أني دائمًا في المربع الأبيض محل سيطرتهم.. الذي خططوا لوضعي به منذ ولدت ونزلت هذا الكوكب العجيب الذي ظن نفسه يومًا استكبارًا وجهلاً الكوكب الوحيد الحي في كون لا حدود معروفة له حتى الآن.. وكأننا أهل الأرض ظننا نفسنا ملائكة مثالية الطبع والخلق، ظننا أن الرحمن لم يخلق بشر غيرنا في كونه الفسيح هذا.. كونه الجميل الخلق والخلقة.. سبحانه!

يومها دخل علي ابني حجرة نومي حيث كنت أرضع أخته حديثة الولادة «مي».. وكان يحمل بين يديه الصغيرة مربع صغير بني اللون.. شيء من بعيد يشبه حلوى الأطفال ولكنه كان في حقيقته شيء مقزز.. هو «سم» للكبار ولأي كائن حي!

- «طاطا»..... !

نطق ابني الصغير الكلمة بصورة غير مفهومة.. أنا وحدي أفهم كلماته الطفولية التي يستبدل بها حروف الكلمات بحروف أخرى فقد تآخر في النطق لسبب نفسي كما ذكر طبيب الأطفال أمامي أثناء حديثه مع زوجي.. وبيني وبين نفسي قدرت أنا هذا السبب اللعين.. فزوجي يصرخ في وجهي دائمًا لأتفه الأسباب ويصفعني أمام أطفالنا لأصغر الأخطاء والهفوات .. فكلمة «طاطا» تعني في قاموسه الطفولي الملائكي كلمة «شيكولاتة» !.. وأخذت من يده المربع البني.. أو قطعة الحشيش التي تخص زوجي «جاسر» موظف البريد.. بالدرجة الثالثة!!

حرفيًّا قفزت من مكاني واقتلعت قطعة مخدر «الحشيش» أو السم الهاري من يدي طفلي والذي تعلم المشي جيدًا مؤخرًا لضعف بنيانه ومرضه الدائم.. قبل أن يبتلعها وهو يحسبها قطعة حلوى !.. ودون كلمة تخلصت من قطعة الحشيش التي

حصل عليها أبنى «مازن» من أمام زوجي.. حيث كان يجلس أمام التلفاز.. فغدًا الجمعة أجازته الأسبوعية وقد جلس يلف سيجارة تلو الأخرى.. ودخن.. ودخن مخدره حتى نام مكانه ولم يتمكن من جمع مخلفاته من على الطاولة التي أمامه حتى لا تقع في يد أكبر طفلينا وتقتله لو ابتلعها...

أنه وقت الرحيل !!

الرحيل بعيدًا عن زوجي.. وعن أبي وعن أمي وعن أخي وأختي وكل أسرتي.. فالجميع لا يرى أن إدمان زوجى لمخدر «الحشيش» مبرر قوى لطلبي الطلاق.. طالما أنه لا يبخل على بالمال أو المعاشرة الجنسية.. ونعم أنا يومًا كنت أحبه وقد أكون لازالت أحبه ولكنى لا أحترمه ولا أرى به أب صالح لأبني.. الذي سيقتله يومًا دون قصد لو استمر على فعلته وتعاطيه المخدرات !

ولكنى أولاً أحب أن أسجل اعترافي.. أنا «يارا محمد حسن».. اعترافي بأني امرأة غبية قبلت الزواج برجل أقل منى في التعليم والتدين والثقافة وأشياء أخرى.. فأنا تخرجت من الجامعة وهو موظف حكومي بدبلوم فني تجاري.. أنا أصلي وأصوم وهو لا يفعل.. ومن فيض غبائي أنا أخترته بإراداتي الحرة.. بل ورسمت خطة محكمة لأجتذبه لي.. وتنازلت كثيرًا

لأكسب رضائه.. فبمجرد بلوغي السابعة والعشرين من عمرى دون زواج.. جن جنوني.. وأيضًا جنون أمي وخاصة وأنه قد خطبت أختي الصغرى.. وشعرت أني سأسقط في بئر العنوسة وسأموت وحيدة منبوذة بعد موت أبى وأمي وزواج أخي واختي.. نعم تخيلت مصيري بهذا السواد لو أني لم أعثر على رجل في القريب العاجل وأجعل منه زوجي.. وصابني الهلع من احتمال صعوبة حدوث الحمل بعد الزواج لو تأخرت أكثر.. وبعد خطوات عابثة أوقعت زوجى في حبالي وتزوجنا وأنا لا أكاد أصدق نفسي أنى أخيرًا تزوجت هذا الرجل الطويل العريض الأسمر.. موظف الحكومة.. وأصبح لي بيت !

وقررت الرحيل ولكني كأي فتاة شرقية لا أملك مكان خاص بي أذهب إليه لو اختلفت مع زوجي سوى بيت أبي أو عائلتي.. فالفتاة تتزوج غالبًا بعد نهاية تعليمها.. وتكون بلا أي سند في الحياة.. فهي لم تأخذ وقت لتكوّن شخصيتها وتحصل على استقلالها المادي كما يفعل الرجل!.. فلا الوقت قد سمح لها بأن تعمل وتدخر مال أو حتى تشترى بيت كتأمين لها لو أضطرت أن تغادر بيت زوجها لأي سبب.. أنها بمجرد زواجها تكون حرفيًّا تحت رحمة زوجها وأخلاقه وسلوكه معها سواء كان سلوكًا طيبًا أو سيءً.. إنها أسيرته بكل ما تحمل الكلمة

من معنى !!.. وكل هذا تضحي به الفتاة فقط حتى تتزوج قبل سن الثلاثون حتى لا تحمل لقب عانس أو قليلة الحظ !

في الثانية صباحًا .. حملت صغيرتي «مي» وحقيبة بها أهم قطع ملابسي وملابسها وملابس أخيها الذي قبضت على يده الصغيرة في قبضة يدي حتى يتبعني.. وألقيت نظرة أخيرة بعيون دامعة على زوجي المخدر أمام التلفاز ويغط في نوم كنوم الموتى على أريكة صالة البيت.. وفتحت باب الشقة وتسربت خارجًا .. يد تحمل ابنتى التي غلبها النوم وسلبها حياة لحظات قاسية ويد تحمل حقيبة كبيرة على كتفي ويد «مازن».. بعيدًا عن زوجى وعن مأساتي معه.. كانت كل ثروتي بعض مشغولات ذهبية والفيزا كارت الخاصة بى بها مبلغ صغير.. ادخرته من ما يتبقى من مرتبي كموظفة في صالون كبير للحلاقة خاص بالنساء بعيدًا عن أعين زوجى كعادة كل الزوجات.. وقررت أن أمضي إلى أين لا أعرف.. ولكني أعرف أني يجب أن أرحل بأبني قبل أن يقتله زوجي بأهماله وإدمانه.. وأغلقت الباب خلفي وأنا لا أدري أين أذهب أو لمن ألجأ .. هل أذهب لفندق بعيد أم إلى صديقة قديمة لقضاء الليلة.. وماذا بعد الليلة؟!.. أنا أريد بيت دائمًا لي ولأبنتي النائمة على كتفي كعصفور صغير مهيض الجناح وابني العالق بطرف ثوبي.. فطفلتي

ضعيفة منذ ولادتها ولن تتحمل قضاء ولو ساعات معي في الشارع في ليلة شتاء باردة كهذه.. أريد بيتًا ودفئًا.. أريد أمان.. أريد حياة أخرى غير حياتي التي سُلبت مني!

كان

مابيننا.. كان !

قصة حب تافهة

حدثت أيام.. زمان...

تصورتك

منقذي.. حبي.. عشقي..

أحد الفرسان...

واستيقظت على الحرمان...

لاشيئًا قبله.. ولاشيئًا بعده..

فقط ألم انتهى بالتجاهل والنسيان...

قل ماتشاء..

لقد خمد بداخلي البركان...

افعل ماتستطيع..

لن أعود إنسان...

لقد حولتنى لتمثال..

رائع.. ولكن بلا عنوان...

تمثال يفعل كل

ما يطلب منه.. كآلة بلا حنان...

قتلتنى.. ألف مرة..

ونثرت جثة قلبي في كل مكان...

القسوة شيء لذيذ..

تعلمته منك.. علمتني العصيان...

القسوة علمتنى أن لا آراك..

كما لم ترآني.. فعلى يديك

مات الشعور.. وانتحر الوجدان...

سعيدة بقوتي الجديدة.. حيث

نبضي خالي منك.. أحلامي بلا هذيان...

لن أكون شيئًا يخصك..

لك قلبك ولي قلبى.. لنا.. قلبان...

بفضلك كل شيءٍ في عينى قبيح..

بربك كيف نقلت الجحيم.. في البستان ؟!

أنت تكذب طوال الوقت..

بوجه ملائكي كأنك تعزف أطهر الألحان...

اذهب وخذ معك..

الشمس والقمر..

والذهب والفضة والمرجان...

لا أراك بشر أو حتى جان !

لعلك روح شريرة..

البقاء معها ليس في الإمكان...

وفجأة فتحت جارتي العجوز باب شقتها على غير عادتها في هذا الوقت.. إنها غالبًا تنام قبل هذا.. وأخرجت كيس القمامة حتى يستطيع البواب أخذه صباحًا كعادته والتخلص منه.. ووجدتني على حالي هذا.. أرتجف رعبًا من المجهول الذي ينتظرني لمجرد أنى عبرت عتبة بيت الزوجية.. فاقتربت منى بكرسيها المتحرك الذي تجلس عليه وتستخدمه للتنقل..

وتفحصتني مليًّا متعجبة من رؤيتي هكذا في تلك الساعة المتأخرة التي كان يجب أن أكون فيها نائمة هانئة مطمئنة بين أحضان زوجي.. محمية من أي شيء وكل شيء.. هذه كانت فكرتي عن الزواج قبل أن أتزوج.. فكرتي عن وجود رجل في حياتي يحمل لقب زوجي.. ثم دعتني بكلمات قليلة لدخول شقتها!

إنها امرأة.. وحيدة.. غير ودودة.. لها خادمة تأتي إليها ثلاث مرات في الاسبوع .. ابنها الوحيد سافر أمريكا منذ سنوات وتركها وحدها بعد وفاة زوجها.. وهي لم تشتكي الوحدة يومًا.. دائمًا لديها ما يشغلها عن الآخرين رغم قلة من يزورها أو يتودد إليها.. وأنا علاقتي بها دومًا طيبة فمنذ عرفت أنها وحيدة وأنا أهتم بها من طرف خفي.. وكلما سمح لي القدر بصنع حلوى أو أكلة جميلة.. احتفظت لها بطبق منها.. أنه شيء بسيط لم يكلفني الكثير ولكنه جعلني أكسب ودها بطريقة ما.. وأكون الوحيدة من الجارات التي سمحت لها بدخول شقتها والكلام معها لدقائق طويلة.. كنت أحبها.. وأرى بها شخصية غريبة عن باقي البشر.. شخصية قادرة على البقاء وحدها دون تذمر أو لوم الأخرين على هذا.. أنها لم تلقَ اللوم يومًا -ولو وسط كلامها- على ابنها وعلى ابتعاده عنها.. بل تصالحت مع نفسها بأن هذا حقه في الحياة بأن

يعمل ويسعى للحصول على سعادته في أي مكان يحقق له هذا.. أنها ترى أن أقوى حق للأنسان هو حقه في البحث عن سعادته وحريته.. وهي تكتفي برسائل ابنها القصيرة التي تطمئنها أنه بخير مكتفية جدًا برؤيته كل فترة على أحد برامج التواصل الاجتماعي.. بالصوت والصورة.. مكتفية وراضية بحالها صعب التحمل !

ودخلت معها شقتها.. ووجدت نفسي أبكي لها بحرقة حالي مع زوجي.. لم أستطيع ذكر تفاصيل لها عن إدمان زوجي وحياة أبني المعرضة للخطر في وجود زوجي ولكنها كانت امرأة لها نظرة ثاقبة وأذكى من كل توقعاتي ففهمت ما أخفيت عنها.. وقرأت الموقف دون شرح كثير مني.. واختفت لحظات قصيرة داخل أحدى حجرات شقتها وعادت تحمل مفتاح كبير!

إنه مفتاح بيت ورثته في الفيوم ولم تعد تذهب إليه نظرا لظروفها الصحية السيئة وبعد المكان.. بيت يتكون من طابقين كما قالت ل «يارا» وله حديقة صغيرة.. وأخبرتها بمكانه بشكل مفصل وطلبت منها أن تذهب إليه وتبقى به حتى تجد حل لمشكلتها أو يمكنها البقاء به للأبد.. فهذه المرأة لا تظن أن أبنها قد يعود لبلده يومًا.. لقد أخذت أمريكا عقله كما فعلت مع الكثيرين !

الطريق من «الجيزة» إلى «الفيوم» كان مرهق للغاية خاصة مع حمل طفلة صغيرة وحقيبة كبيرة.. والبيت كان قابع في منطقة بعيدة نسبيًّا عن العمران.. والناس نادرًا ما تمر حتى من أمام هذا البيت.. وبدى البيت من بعيد مهجور ومنسي ولم يدخله أحد منذ سنين.. ولكن ذلك لم يخفني بالمرة.. بل بالعكس زرع بي شعور مريح بالطمأنينة.. فأنا هاربة من البشر.. أنهم أكثر رعبًا من كل الجن والشياطين مجتمعين.. أنهم أكثر المخلوقات سفكًا للدماء وظلمًا لبعضهم البعض !

بصعوبة دفعت البوابة الحديدية بعد أن فتحت القفل المعلق عليها بالمفتاح الذي أحمله.. والذي نسيت أن تعطيه لي جارتي فأتصلت بي بعدما فارقتها بدقائق قليلة على هاتفي المحمول.. فعدت لها لتفرد يدها به إلي وتذكرني بتجنب ضياعه منى هو ومفتاح البيت الرئيسي.. كانت الشمس أشرقت ومع ذلك كان الجو لازال باردًا للغاية.. فأحتضت أبنتي أكثر حتى كدت أدفنها بين ضلوعي لأحميها من البرد وكل شرور العالم.. ودفعت بكل قوتي باب البيت الذي بمجرد عبوره وجدت نفسي في صالة فسيحة.. فعبرتها فرحة بسعة المكان لأجد نفسي في قاعة كبيرة بها شرفة تطل على حديقة مهملة.. وتأملت القاعة.. تحتوى على صالون كبير وطاولة لتناول الطعام تكفي

لثمانِ أشخاص.. كانت الأتربة في كل مكان.. تغطي كل شيء وتمحو جماله.. ولكن لا يهم.. سوف أستعين بأي فتاة من القرية لتساعدني في التنظيف.. المهم أني الآن في بيتٍ أنا وحدي صاحبة القرار به.. لقد كان زوجي يتشاجر معي على توافه الأمور كل ليلة في ميعاد ذهابي لسريري.. فمرة يعلو صوته لأن بعض الأطباق تركتها متسخة في حوض المطبخ ولم أغسلها قبل نومي.. مع أني كنت سأغسلها بمجرد أستيقاظي من نومي.. ويتهمني بأني امرأة كسول وغير نظيفة.. لم يقدر أبدًا إني إنسان مثله يتعب ويمل من تلك الأعمال.. ومرة ينهرني لو وجدني أتابع مسلسل «تركي» ويتهمني بالتخلف وعشقي للرومانسية والسخفات وربما أجده هو بعدها يتابعه بعد أن يخبره اصدقائه في العمل بجمال قصة المسلسل وروعة أحداثه.. ومرة يفتعل مشكلة تنتهي غالبا بشتمي وإهانتي لو اكتشف شرائي أي ملابس جديدة لي دون علمه ودون اصتحابه معي لإختيارها.. حتى لو كان المال مالي ويخصني وحدي.. ولكني الآن.. حرة.. ولكن هناك شيء بي ليس طبيعًا.. قلبي يؤلمني.. وأنا لست على مايرام.. حزينة لسبب قوي ولكني لا أعلمه.. ينقصني شيئًا مؤثرًا ولكني غير مدركة كنة هذا الشيء.. ووسط حيرتي بدأت بتنظيف البيت.. المهم الآن أن أعد مكان لأنام به أنا وابنتي مي.. وجدت في الدور الثاني

ثلاث حجرات.. فأخترت الصغرى من بينهم وبدأت بنشاط سجين تحرر.. تنظيفها...

استسلمت مي للنوم .. فاعددت لها فراش آمن فوق منضدة بجواري لتنام أمام عيني.. في مكان يسهل على مراقبة وضعها طوال الوقت.. وتكون تحت بصيرتي أثناء عملي على تنظيف الحجرة.. ثلاث ساعات وعادت الحياة للحجرة.. وعمت رائحة النظافة فقد كان في البيت كل شيء احتاجه للتنظيف.. وإن كانت كلها أشياء قديمة وتبدو تاريخية ولكنها كانت فعالة وكافية.. كمية الأتربة التي خرجت من الحجرة كانت متوقعة على مكان مغلق منذ سنين.. مكان يجذبك له رغم اتساخه وقدمه وبعده عن الطريق والناس !

كان معي ما يكفي لإعداد ثلاث أو أربع رضعات لإبنتي.. ولذا يجب أن أخرج وأحضر لها ولي المزيد من الطعام والشراب.. فأنا لم أتناول شيئًا منذ.. يآلهي.. أنا حتى لا أتذكر متى أكلت آخر مرة.. ولكني بحاجة للنوم.. سأحتضن صغيرتي وأنام.. وبعدها سأخرج لأحضر كل ما أريد من القرية واتفق مع فتاة لتأتي وتساعدني في التنظيف.. النوم أولاً...

كل بنات القرية رفضوا مساعدتي في تنظيف البيت دون سبب محدد.. الكل بمجرد معرفة مكان البيت وإنه البيت

المهجور.. «بيت الشلال».. كما يحبوا أن يطلقوا عليه وهن يرفضن بإصرار عجيب رغم عرضي مبلغ معقول من المال مقابل العمل.. ولكني لم أهتم كثيرًا لمعرفة السر وراء هرب الفلاحات مني وخوفهن أو ترددهن الاقتراب مني أو من البيت.. ولم أبالي.. فمنذ متى والناس محقون في الحكم على المجهول.. إنهم دائمًا يخافون ما يجهلون.. يعتبون دون أن يعرفوا.. يرفضون قبل أن يفهموا.. فغالبًا عامة الناس يجتمعوا على أشياء غير حقيقية.. غير منطقية.. وغالبًا وهمية.. أو هكذا ظننت!

كل يوم كنت أنظف حجرة أو جزء من البيت.. عشرة أيام وكان البيت لابأس به.. به شيء يجذبني إليه.. بداخله شعرت براحة عجيبة وسكينة لم أتذوقها منذ سنين.. الطمأنينة هي الوصف الأدق لحالي الآن.. مي.. هي أيضًا تلهو في سعادة وتبتسم لي دون سبب.. وبرغم أن البيت خالي من معظم الأجهزة الكهربائية الحديثة ماعدا ثلاجة صغيرة وموقد قديم إلا أنه كان جنة لي.. وكأني جنين عاد رحم أمه.. كنت مكتفية بنفسي وبطفلتي عن الكون وما فيه.. ووجدت مجموعة كتب في مكتبة الدور الأول باللغة العربية والانجليزية والفرنسية.. كانت كفيلة بتسليتي ونقلي لعوالم أخرى أختارها أنا وحدي..

يبدو أني أخيرًا أصبح لي حياة هادئة.. على فقط أن أجد عمل وحضانة لأترك صغيرتي بها أثناء عملي...

ان الساعات الطويلة تمضى و «مي» أمامي تلعب بدميتها وأنا بجانبها أقرأ كالحلم الوردي.. ولكن مازن !!

ابنى مازن ينام كثيرًا منذ آتينا إلى هنا.. ربما لهدوء المكان وجماله.. ربما لاختفاء صوت زوجى المزعج من حياتنا.. ومشاحناته معي التي لا تنتهي ولا يمل منها.. المهم أني أخيرًا تملكت بيت.. سأفعل المستحيل وأشتري هذا البيت لأبقى به للأبد.. جارتي قالت أنه يمكني البقاء هنا للأبد.. هي لا تريد البيت وابنها الوحيد لن يعود من أمريكا.. فقد لو يصبح البيت بيتي !

هكذا تمنت يارا في نفسها...

في تلك اللحظة المباركة رن جرس الباب.. وتعجبت يارا في نفسها من أن جرس الباب لازال يعمل.. ولكنها استطاعت ايصال البيت بالكهرباء.. فالسيدة جارتها قالت لها أنها قد تركت مبلغ كبير من المال لشركة الكهرباء وشركة المياة.. لتظل تلك الخدمات تعمل بالبيت على أمل عودة ابنها يومًا.. وتعجبت أكثر من فكرة أن يزورها أحد.. فالجميع يرفض الاقتراب منها أو من البيت!.. البيت الذي منذ دخلته وبرغم كل شيء تعتبره جنتها المفقودة التي عثرت عليها أخيرًا...

وجدت من بالباب رجلاً عريض الكتفين.. بدين.. و ذو بنية جسمانية قوية له شارب ويرتدي معطف رمادي اللون وبدلة كحلية أنيقة من تحته.. لم تميز ملامحه كثيرًا في الظلام.. ودون كلمات كثيرة أعطاها مظروف كبير بني اللون وأخبرها أن جارتها قبل موتها قد تنازلت لها عن هذا البيت وعرف لها نفسه بأنه المحامي الخاص بجارتها وهذا الظرف يحمل عقد بيع البيت لها.. فقط عليها التوقيع عليه ليصبح البيت ملكها.. واختفى في لحظات من أمام عينيها المبهورة.. التي اتسعت في الظلام غير مصدقة.. نحو سيارته التي انطلقت في لحظة تنهب الطريق الواعر عودة الى القاهرة العامرة!

كانت تريد أن تسأله ألف سؤال ولكنه لم يعطيها فرصة لأي شيء وأختفي في الظلام الذي أتى منه.. لقد تمنت منذ قليل أن تشتري البيت الذي أحبته وأحبت الهدوء والسكينة التي تحيطه.. وها هي الآن صارت مالكة البيت دون حتى أن تدفع جنيها واحدًا.. لعل هذا صلح الدينا لها بعد توجيه ألف صفعة.. جارتها تحت قناع الصمت والهدوء كان لديها قلب أم لا يملك سوى العطاء للضعفاء والمحتاجين.. ولم تنساها وهي تحتضر.. رحمها الله وأسكنها فسيحة جناته.. تمتمت في نفسها.. ورغم فرحتها بالبيت إلا أن عينيها بصورة تلقائية أدمعت حزنًا على موت تلك الجارة

رقيقة القلب.. فما حدث معها شيء لا يصدقه عقل.. وطافت في البيت باكية وهي تحمل ابنتها.. أنه بيتٌ رائعٌ ولو عرضته «يارا» للبيع سيكون ثمنه كبير.. يكفي لاستجار شقة في القاهرة وعمل وديعة بالبنك بباقي المال لتنفق على نفسها وطفليها حتى يدخلا الجامعة.. أنه فعلاً ثروة ولكنها لن تبيعه أبدًا.. إنه بيتها.. لن تبيعه حتى لو اضطرت للعمل.. وأقرت بينها وبين نفسها أنه سيظل بيتها لآخر لحظة في حياتها مهما حدث ومهما كان دافع التنازل عنه...

في العاشرة مساءً.. كانت ابنتها في سريرها نائمة وهي تعد طعام لها ولابنها مازن.. ولاحظت في نفسها استسلام مازن للنوم طوال الوقت.. لقد اشتاقت له وللعب معه ولطريقة نطقه المضحكة للكلمات التي لا يفهمها أحيانًا كثيرة أحد غيرها.. أنه طفلها الأكبر وصديقها الصغير الذي طالمًا تعلق في يد زوجها لمنعه من ضربها أثناء شجارهما.. لم يكن يخاف كسائر الأطفال من والده رغم جبروت الاب.. كان طفلاً شجاعًا بل رجلاً صغيرًا...

دخلت الحجرة التي كانت تعتقد أن مازن نائم بها بعد أن أعدت الطعام.. تمنت أن توقظه قليلاً من نومه حتى يأكل معها..

تتسم «فارس» رائحة صينية البطاطس التي أعدتها والأرز المطهو بالزبدة والتوابل النفاذة.. إنها نفس رائحة طعام أمه.. وبحث كثيرًا عن مصدر تلك الرائحة الشهية التي انتشرت في البيت وقلبت المواجع على أحشائه المحرومة من استقبال الاطعمة.. كانت يارا تموت شوقًا لضم مازن.. وكأن جزء من قلبها مفقود وتريد استرجاعه بضم مازن اليها.. وتحطم أملها فورًا بمجرد رؤيتها لسريره فارغًا.. حتى السرير كان مرتب وكأنه لم ينم به طفل أو أي شخص آخر.. ووقفت أمام السرير مصدومة.. أين ذهب ولدها.. وهمس قلبها الباكي بين ضلوعها.. أين أنت ياصغيري ؟!

تراه يكون يلعب معها ومختبئ في مكان ما.. ونادت عليه بصوت ذبيح وهي تجول بقدميها ذهابًا وإيابا في أنحاء البيت وتفتش عنه بعين دامعة:

«مازن.. مازن.. مازن.. أين أنت ياحبيبى؟.. أمك أشتاقت لك ياحبيبى.. تعالى لتأكل ثم عد للعب مرة أخرى.....»

مرت ساعة وهي تفتش البيت أملاً أن تجد مازن حتى تأكدت تمامًا من خلو البيت من ضالتها أو طفلها.. وجلست على سلم البيت الداخلي الموصل للدور الثانى تبكى بحرقة ضياع طفلها!

استيقظت طفلتها الصغيرة مي لتصطدم عينيها الصغيرة بظلام الحجرة التي تركتها بها أمها.. فبكت بحرقة منادية أمها بصوت صراخها الواهن.. ولكن أمها لم تنتبه لها.. فقد كانت في وادي آخر بحثًا عن أخيها.. الذي اختفى وكأنه لم يكن له وجود.. ولكن «فارس».. أزعجه للغاية بكاء الصغيرة.. لقد تذكر الآن فقط أنه كان يومًا أب لطفلة جميلة ولكنه لا يذكر أين ذهبت بعد موته ولا يعلم ماذا حدث لها.. دخل حجرة الصغيرة فوجدها تبكي أشد البكاء.. فما كان منه سوى انه اقترب منها متعجبًا من أين جاءت هذه الصغيرة.. إنها جميلة كطفلته التي كانت يومًا.. تشبهها ولكنها ليست هي.. ووجد نفسه مرعوب من فكرة أن تكون هذه الطفلة تتبع لعائلة تسكن بيته.. أنه بيته هو ولن يسمح لأحد باحتلاله حتى لو كان هو مجرد شبح رجل ميت منذ أكثر من مائة سنة.. أنه بيته وسيطرد أي شخص يحاول البقاء به !

●●●

زيارة للجحيم !

صوت الصغيرة مي كان مزعج في أذن فارس حد الألم.. لذا تمنى ان يخرس صوتها الباكي بأي شكل.. انها تذكره بما ظن انه نسيه للابد.. بابنته !.. التي لم يعلم حتى الآن ماذا حدث لها بعد موته وموت أمها.. الآن فقط تذكر أنه لم يحب الأطفال يومًا.. وأنه طالما رأى الأطفال مخلوقات مزعجة غير عاقلة عليه الابتعاد عنها.. ولكن هذه الصغيرة لا تسكت ولا تتوقف قليلاً عن البكاء لتلتقط حتى أنفاسها ويهدأ الصداع في رأسه هو.. أضاء نور الغرفة التي كانت تنام بها.. وتعجب أنها قادرة أن تراه وتسمع صوته عندما كلمها:

«خذي هذه اللعبة.. حتى تأتي ماما.. أنت حلوة ولن تبكي مجددًا.. أليس كذلك ياصغيرة ؟!.....»

ووضع بجانب الطفلة دميتها التي كانت بعيدة عنها.. وبدأ ينظر لها ويسأل نفسه.. كيف سيطرد هذه العائلة من بيته.. ثم تذكر ضاحكًا إنه شبح أي «عفريت» وسيتمكن من إخافتهم بسهولة حتى يرحلوا عنه وعن بيته.. ألا يكفي جحيمه مع زوجته العنيدة ذات الجثة المشوهة.. التي كلما دفنها عادت مرة أخرى من قبرها لتزاحمه في سريره وتقلق مضجعه.. إنها امرأة لا تطاق.. كما طالما ردد في وجهها أيام كانت على

قيد الحياة.. لقد كان يقصد إهانتها لتخضع له.. كانت متعته إذلالها.. وتبسم ضاحكًا في نفسه !

إلتهت الطفلة قليلاً في دميتها.. وهي تحاول احتضانها بصورة عفوية طلبًا لقتل شعورها بالوحدة في تلك الغرفة الكبيرة الباردة.. وكانت الطفلة تتأمله بين حين وآخر.. وعندما هدأت قذفته بابتسامة بريئة من بين شفتاها الكرزية اللون وكأنها تشكره على بقائه معها حين نسيتها أمها...

صوت بكاء يارا كان أكثر إزعاجًا له من صوت بكاء ابنتها لذا قرر أن يحاول إسكاتها هي الأخرى.. فكر قليلاً في أمرها.. فوجد أنها لن تصمت إلا إذا قام بإلهائها قليلاً.. قرر الوقوف أمامها وتأملها.. فنزل راقصًا كعادته سلم البيت الموصل للدور الأول يغني أغنية بدأ يسمعها منذ فترة.. ويستعجب معانيها.. إنها أغنية لا تخص زمنه عام ١٩٠٠ ميلاديًّا !.. ولا حتى معانيها واضحة تمامًا له.. ولكن تعجبه وذات لحن راقص.. تقول كلماتها:

«قاعد لوحدك كده سرحان.. الشيطان يوزك في سكة شمال.. يفضل يقولك.. العب يلا العب يلا.. ماتلعب يلا.....»

مـن وسـط نحيبهـا الـذي أوصلهـا لحالـة سـيئة مـن صعوبـة التنفـس.. وصـل لأذنهـا صـوت فـارس يغنـي!

وإذا بهـا تجـده أمامهـا يغنـي بأعلـى صوتـه.. كانـت هيئتـه مريبـة.. رجـل لا يزيـد عمـره مـن وجهـة نظرهـا عـن الأربعيـن سـنة.. طويـل وعريـض المنكبـين كمـا يقـال ولكـن ليـس أبـدًا بالضخـم.. بالعكـس كان ذي جسـد رياضـي منحـوت.. شـعره مصفـف بعنايـة تمامًـا كأبطـال الأفـلام العربيـة القديمـة.. عينيـه عسـلية اللـون وواسـعة ولـه شـارب كبيـر ولكـن يليـق بوجهـه المتناسـق الملامـح.. كان يرتـدي بدلـة بنيـة قديمـة الطـراز جـدًا.. ولكـن تليـق بجسـده وكأنهـا جلـد ثانـي لـه.. نظـرت لـه مبهوتـة مـن هـول الصدمـة لرؤيتـه ولـم تطـرف.. وأول مـا جـاء في بالهـا أنـه لـص !

حاولـت الصـراخ فنظـر لهـا.. فلـم يخـرج لهـا صـوت.. وكان أحبـال صوتهـا انعقـت وأخرسـتها.. ولفـت نظـره قدرتهـا علـى رؤيتـه.. أنهـا تـراه كمـا يراهـا.. وفكـر في نفسـه سـعيدًا أنهـا قـادرة علـى أن تـراه.. كيـف لهـا ذلـك ؟!.. فكـر...

وقـف تمامًـا أمامهـا وبـدأ الحـوار معهـا قاطعًـا لحظـات الصمـت الثقيلـة علـى قلبهـا المرعـوب منـه:

«أنا.. فارس غبروش صاحب البيت.. وأنت ؟!.....»

فقالت بحدة وانفعال زائد:

«لا يبدو لي سوى إنك لص أو محتال.. كيف دخلت بيتي.. وكيف تجرء وتتجول به وأنت تغني.. أنت من أخفى مازن طفلي.. أين ابني.....»

وانهمرت في البكاء مرة أخرى.. ثم تابعت متوسلة:

«أين مازن.. ارجوك خذ ما تشاء من البيت ولكن اتركني في حالى أنا وابنتي وابني.. أرجوك.. لن أصرخ ولن أبلغ عنك الشرطة.. حتى بعد انصرافك.. فقط أَعِد لي ابني.....»

رد عليها بلامبالاة:

«انا صاحب البيت كما قلت لك.. من فضلك غادري البيت أنت وابنتك وابنك.. لو وجدتيه.. والآن.. حالاً.. أريد الذهاب لحجرتى للنوم.. هيا غادري سريعًا !»

أخيرًا تمالكت نفسها:

«هذا بيتى أنا.. لقد تنازلت لي صاحبته عنه قبل موتها ومعي عقد بهذا.. أين طفلي وكيف دخلت البيت ؟!.. لقد كانت كل الأبواب والشبابيك مغلقة.. كيف دخلت البيت.. أنت لص ؟!.. سرقت ابني وجئت لتساومني على الفدية.. أين مازن؟.....»

وصرخت في وجهه وهي تنطق سؤالها عن ولدها.. حتى أجفل فارس منها وظن أنها قادرة أن تؤذيه رغم أنه مجرد شبح.. وفكر في نفسه حقًا الأطفال كائنات مزعجة والأمهات عندما تفقد أحد صغارها تتحول فجأة لمخلوقات مرعبة وبدأ يتأملها.. أنها لا تزال شابة.. ملامحها رقيقة ولكن قادرة أن تعطي.. لو أرادت.. تعبيرات خشنة.. متوسطة الطول ورشيقة القد.. بشرتها خمرية ناعمة ولكن شفتاها رفيعة تزمها في خط قاسي عند الغضب والاستعداد للثورة.. شعرها أسود قصير ومموج.. ولكن امرأة بجمالها لا حاجة لها للشعر الطويل لتثبت أنوثتها المندثرة تحت عينيها المنتفخة وأنفها الصغير الأحمر من كثرة البكاء.. إنها امرأة حزينة تمام كزوجته.. وشعر تجاهها بالقرف وبقليل من الشفقة.. في آن واحد لا يعرف كيف ؟!...

إنها تثير جنونه.. ماذا يفعل بها؟!.. هو فقط يريدها خارج منزله.. فعاد يبتسم في وجهها وقال لها:

«سيدتي الجميلة.. أنا شبح مسن.. لا يغرك شكلي الشاب.. ولكني في الحقيقة في عمر جدك أو أكبر قليلاً.. ولا طاقة لي لتحملك أنت وطفليك في بيتي.. اذهبي حالاً من بيتي.. وإلا.....»

قاطعته غير متفكرة في كلماته.. صائحة في وجهه:

«ماذا ستفعل أيها المعتوه؟.. للمرة الأخيرة اسألك أين ابني مازن؟!.....»

فصاح في وجهها هو الآخر بدوره قائلاً:

«لم يهمك إني شبح.. عفريتا.. وكل ما همك إعلان التحدي لي وسؤالي ماذا سأفعل لك لو لم تخرجي من بيتي؟!.. يبدو أنك مجنونة سيدتي.. أنا كرجل وعندما كنت على قيد الحياة.. كنت لو رأيت ظلي خلفي لخفت منه وليس شبح طويل وعريض مثلي.. تبأ لك !.. خافي مني قليلاً.. على الأقل احترامًا لسني حتى.....»

برغم كل المصائب التي عاشتها مؤخرا وجدت نفسها تبتسم من طريقته الساخرة في الكلام عنها وعن رد فعلها تجاه...

«وهل يبدو لك أنى امرأة تخاف حتى ولو من شبح كما تقول....»

فباغتها قائلاً:

«إذن لماذا لا تأتى وتعتصري شفتاي في قبلة ثم تغادري بيتي؟!»

عادت للابتسام رغمًا عنها وقالت مستهزئة به:

«حتى لو صار الرجل شبحًا فإنه لايزال قادر على التحرش!!»

فنظر لها وعلى شفتاه ابتسامة عريضة وقال:

«اعترف أننا معشر الرجال أننا مخلوقات غير مهذبة.. ولكن هيا قبلني وغادري بسلام.. قوامك رائع.. وأنت شهية كحبة خوخ طازجة....»

فصفعته كرد فعل سريع لوقاحته ولكن يدها لم تقبض سوى على الهواء.. إنه حقًا شبح.. تمتمت لنفسها!

فقال لها:

«لما محاولة الصفع ؟! .. أنتِ غير ودودة.. شبح وسيم مثلي يطلب منك قبلة بدلاً من تقبيله وشكره تحاولي ضربه؟!.. أنت فظة ياسيدتي الجميلة.....»

«لو كنت شبح حقًا.. أتوسل لك قل لي أين طفلي ؟»

«عادت للخبل».. قال فارس في نفسه...

«أمامك فقط حتى الصباح لتغادري بيتي.. فأنا لن استضيفك أكثر من ذلك.. فأنت مزعجة وتبكي كثيرًا وحتى

رفضتي تقبيلي بوقاحة.. كيف تجرؤين وأنا كنت يومًا معبود النساء عندما كنت على قيد الحياة ؟!....»

وذم شفتيه سخطًا !.. فتذللت له دامعة:

«سأفعل أي شيء تطلبه مني ولكن قل لي أين مازن ابني؟.. ارجوك.. أنا أم فقدت طفلها.. ألم يكن لك أطفال يومًا؟!»

«أنت مخبولة كليًّا».. عاد يتحدث لنفسه بصوت خفيض...

الدخان الأبيض ملأ المكان.. بلا مقدمات.. لدرجة جعلت الرؤية تكاد تكون مستحيلة.. ويارا التي كانت قد جلست أرضًا القرفصاء مستسلمة لبكاء مرير.. تملكها الذعر.. وحاولت الوصول لحجرة بنتها الصغيرة «مي» ولكن فجأة الأرض هي الأخرى رقصت تحت من قدميها.. وصار عثيرًا عليها أن تستطيع تحريك قدمها وتخطو خطوة واحدة.. حتى بلاطات البيت بدأت تغادر أماكنها وتطير في الهواء.. نظرت اتجاه فارس فلم تتمكن من رؤيته.. فليس أمامها سوى الضباب الذي ظهر كسحر أسود صنعه فارس ليخيفها.. ووجدت نفسها تغرق في دوامة سريعة.. ثم حملها ماء بارد وكأنها غارقة في بحر أو محيط.. كاد أن يتوقف قلبها رعبًا.. وظنت أنها تموت حقًا.. فالتنفس لم يكن بإمكانها.. ولم تعد ترى شيئًا.. إنها دومًا

كانت تتمنى الموت ولا تجده.. ويربطها بالحياة فقط ابنتها.. إنها صغيرة على اليتم.. وخاصة إذا كان الأب كزوجها.. بلا نفع!

ارهقتها محاولة التشبث بالحياة.. محاولة التنفس وسط هذا الدخان الابيض الخانق الذي يحيط بها من كل اتجاه.. ارهقتها حتى محاولة تحريك أي جزء من جسدها بعد الشلل الذي تملك كل عضو من اعضاء جسمها.. إنها عاجزة عن أي شيء وكل شيء.. فقط رأسها لازال يعمل.. وعينيها تفتحها بصعوبة لتحمى نفسها من الحرقة التي شعرت بها بمجرد وصول هذا الدخان الابيض اللعين لأنفها وعينيها.. جاهدت كثيرًا.. ثم استسلمت أخيرًا.. للدخان الحارق والماء الغزير الذي لا تعلم من أين جاء.. إنه الموت بعينه.. همست لنفسها.. مودعة حياة لم تعشها.. لم تحقق بها شيئًا.. سوى الزواج والخلفة.. وفكرت أن زواجها لم يكن أكثر من جريمة اجتماعية ارتكبتها في حق نفسها وفي حق طفليها عندما لم تختار لهما أب صالح.. إنها تستحق أن تعاني.. أخبرت نفسها وهي تستقبل الموت بصدر رحب.. ولكن ابنتها.. من سيعتني بها؟

من حال إلى حال تغير حالها.. أن فارس قرر خطفها إلى جزيرة شيطانية لا أحد يعلم عنها شيئًا.. فوجدت نفسها في كهف

كبير به ينبوع ماء.. ولكن ماء لونه غريب.. لونه أحمر بعض الشيء وكأنه مختلط بدماء.. أو لوث بها.. كانت مقيدة في ركن مظلم بسلاسل حديدية.. وتجلس على قمة حجرية.. فتفحصت المكان الشيطانى الموجودة به.. فوجدت به الكثير من الفئران الكبيرة الحجم.. مرعبة الهيئة.. إنها فئران سوداء.. لا تشبه أي نوع من الفئران التي شاهداتها في حياتها.. وبدأت تلك الفئران تقترب منها وتشتم قدميها العارية من أي حذاء.. فقاومت كثيرًا لتحرر قيدها القاسي.. فلم تستطيع تحرير نفسها وتنجو بعيدًا عنها.. الفئران ستأكلها وينتهي أمرها.. هكذا قالت لنفسها وهي تبكي.. ومن قلة حيلتها وجدت نفسها تبصق على الفئران التي تحاول الاقتراب منها.. فإذا بالفئران التي تبصق عليها تحترق فورًا وتبتعد عنها وهي تصرخ صراخات شيطانية ملعونة لم تسمعها من قبل.. وعندما تبتعد عنها تلك الفئران الشيطانية.. تجدها تحترق تمامًا لدرجة التفحم !...

إنها في الجحيم.. أكدت باكية لنفسها.. هناك أيضًا ثعابين تتلو في جانب من الكهف.. بمجرد ما وقع بصرها على تلك الثعابين وجدتها تكبر وتكبر ويزداد حجمها.. بل لقد تضاعف حجمها عدة مرات كلما تأملتها.. لقد بدأت تسد عليها الكهف اللعين بحجمها الذي مازال يتمدد.. والأنياب الشريرة التي تخرج

من فمها ويقطر منها السم والنار والغضب.. وهي مازالت مقيدة عاجزة عن أي محاولة للهرب.. وإذا بثلاث ثعابين ضخمة مرعبة تقف أمامها منتصبة.. فتوقعت انقضائهم الفوري عليها.. وظنت أنه الموت أخيرًا جاء ليرحمها.. اقترب منها الثعبان الأول.. حتى لصق وجهه القبيح بوجهها.. فحاولت البعد عنه قدر الإمكان فجرحها ناب سنه الحاد في جانبها.. جرح عميق لدرجة أن أحشائها ظهرت وكبدها تجلى للعيان.. فنظرت لجانبها المشقوق متأملة أحشائها.. متأملة «كبدها» الوردي الذي تدلى خارج جانبها.. فصرخت مرعوبة في الثعابين:

«اذهبوا عني.. اذهبوا عني.. اذهبوا عني.....»

وظلت تصرخ في الثعابين.. وكلما صرخت تضاءل حجم الثعابين وقل عددها.. فعادت تصرخ بكل ما تبقى بها من جهد وقوة فاذا بالثعابين تختفي تمامًا.. واذا بجرحها البشع هو الآخر يختفى تدريجيًّا وكأنه لم يكن ولم يحدث.. فهدأت لحظات قليلة.. تفكر كيف تخلص نفسها من قيودها لعلَّى هناك شيء تفعله يفك سحر قيودها وتختفي هي الأخرى.. لعلها قيود وهمية كالفئران والثعابين وجرحها...

دقائق طويلة مرعبة مرت عليها وهي تفكر.. فقط تفكر فهى عاجزة عن فعل غير ذلك.. تفكر كيف تحرر يديها وقدميها

من القيود الحديدية التي كانت تعتقلها في هذا المكان المرعب.. فما يحدث لها فوق الخيال.. فوق قدرة البشر على تحمل ما يرعب القلب ويشيب له شعر الرأس.. الحرارة من حولها ترتفع كلما مرت دقيقة أخرى وهي في مكانها.. والألم صار لا يحتمل من حرارة قيودها الضيقة على معصمها النحيل.. وعم إحساسها بالوهن كل خلية في جسدها المنهك.. لقد كانت في بيتها آمنة مطمأنة.. ثم تحول كل ما حولها لجحيم.. فقط لأنها لم تنصت لأوامر الشبح الملعون «فارس».. ربما ما تشعر به وتراه أمامها غير حقيقي ولا وجود له سوى في رأسها المحموم ولكنه يؤلمها حد الاحتضار.. وربما يكون عبث هذا الشبح اللئيم بأفكارها ووساوسها وجعلها ترى ما ترى وتسمع ما تسمع وتشعر بما تشعر.. وقالت لنفسها:

«أنا فقط في كابوس وسأستيقظ منه.. ولن أجد أمامي شيئًا من هذه الأهوال التي أراها.. إنها أوهام.. وعقلي الباطن يعرض لي أسوأ مخاوفه.. إنها.. خيالات فقط في ذهني.. سأستيقظ لأجد ابنتي وابني أمام عيني يلعبان وكل شيء بخير.. هذا مجرد كابوس لاشيء به حقيقي أو حتى منطقي.....»

وأغمضت عينيها.. وبدأت بالعد من واحد لعشرة لتوقظ عقلها المثقل بالأفكار من سباته متأملة أن تفتح عينيها مرة أخرى وتجد نفسها خارج الجحيم الذي لا تدري كيف دخلته أو لماذا؟!...

وفتحت عينيها فوجدت سلحفاة كبيرة بعض الشيء تلثم قدميها العارية بفمها الذي يشبه فم معظم الزواحف.. فخافت «يارا» أكثر وصرخت في وجه السلحفاة لتبتعد عنها.. فكان للسلحفاة نظرة غير مبالية وظلت مكانها تقبل قدميها ويارا مرعوبة تحاول جذب قدميها بعيدًا عن فاه تلك السلحفاة التي ظهرت من العدم أو من ركن خفي عن نظرها !

الحرارة المرتفعة لقيود يارا بدأت تترك أثر على يديها وقدميها.. كحرق بسيط ولكن موجع للغاية.. فإذا بالسلحفاة تلعق تلك الحروق البسيطة فتختفي في لحظة وكأنها لم تكن.. ويارا لا تدري ماذا يحدث ؟!.. ولكنها بدأت تشعر بالطمأنينة لوجود تلك السلحفاة.. أنها صديقة وليست عدوة.. أنها روح طيبة جاءت لتساعدها.. فتوقفت يارا عن مقاومة محاولة السلحفاة للقرب منها وأغمضت عينيها تاركة السلحفاة تفعل ما تريد بها.. وفجأة تحررت تمامًا.. فنظرت للقيود في يديها وقدميها فإذا بها قد اختفت.. حتى ثوبها الذي كان اتسخ

وتمزق عاد وكأنه جديد.. كل شيء سحري في هذا المكان وغير مألوف بالمرة.. وعادت السلحفاة إلى جحرها الذي لم تراها يارا وهي تخرج منه زاحفة اتجاهها.. فودعتها يارا بلمسة حانية على ظهرها ولم تخف منها.. ومشت محاولة الخروج من هذا الكهف الشرير فإذا بها تلمح ضوء في نهايته .. وكأنه نور النهار.. مع أنها عندما كانت في بيتها كان الوقت ليلاً.. ربما الشمس أشرقت وهي لا تدري.. وربما هي في مكان غامض لا يخضع لقوانين الطبيعة التي نعرفها !

مشت.. ومشت.. حتى وصلت أخيرًا لباب الكهف.. فتقدمت لتخرج منه فاكتشفت أن ما تراه باب للكهف ما هو إلا مرآة تعكس صورتها هي إذا اقتربت منها وخلفها شاطيء بحر أو بحيرة.. رغم أنها لا زالت في الكهف المظلم المرتفع الحرارة وخلفها المخلوقات الغريبة الضخمة التي ظهرت لها منذ قليل واختفت في إحدى زوايا الكهف الكبير المرعب...

أطالت النظر في تلك المرآة.. إنها ترى نفسها ولكن ما خلفها تراه شيئًا آخر.. فقررت كسر تلك المرآة.. يجب أن تخرج.. الحرارة خانقة والمخلوقات المخيفة خلفها تزئر وكأنها ستعود وتهجم عليها مرة أخرى.. لم تبحث كثيرًا حتى وجدت حجر متوسط الحجم فحملته وهنا بكلتا يديها الرقيقة واقربت

في حذر من المرآة وهي تنوي كسرها.. ربما خلفها مخرج لها أو كابوس جديد!

رمت الحجر على المرآة فلم تتكسر.. فرمته مرة أخرى فلم تتكسر.. فحملته وابتعدت قليلاً خطوات للخلف ورمته في محاولة أخيرة لكسر المراة فحدث صدع صغير في المرآة ولكنها لم تتكسر وظهر بها شيء غريب جعل يارا ترجع خطوة للخلف في ذهول مما رأته أمامها وعكسته المرآة التي يبدو أنها هي الأخرى جزء من الجحيم الذي وقعت به!

لقد عكست لها المراة صورة زوجها «جاسر» !

كان متعب باكي العينين.. على غير عادته.. التي لا تحمل هم لشيء مهما كان وكأنه يعيش فوق الناس لا بينهم !.. وكان يرتدي ملابس السجون التي ينقبض لرؤيتها القلب.. وكان.. وكأنه كبر عشرون عامًا على عمره.. هزيل البنيان.. فقد الكثير من وزنه وشبابه ولمعان عينيه التي كانت دائمة الابتسام حتى عندما كان الموقف يستحق الشعور بالمسئولية أو الحزن.. وخلفه عشرات المساجين.. يرتدون مثله ملابس سجون قذرة وممزقة.. ولكن هو كان أكثرهم عبسًا وحزنًا!

رأته بلا حول ولا صاحب.. ومن حوله بعض الرجال الذين يتكلمون عليه لا معه.. لسبب ما.. ويسخرون منه ويشيرون عليه وكأنه نكتة مجلسهم.. لم تكن تسمع كلامهم وكأنها تشاهد فيلم صامت ولكن حزين.. حزين لدرجة أنها شعرت بالشفقة على حال بطل الفيلم أو زوجها!

ولم تتحمل المشاهدة أكثر.. فنزلت دموعها سريعًا.. وشعرت أن هناك يد قاسية تطعنها عدة طعنات متتالية في قلبها الذي تحمل أكثر مما ينبغي.. فمسكت الحجر مرة أخرى واستجمعت كل قواها وقذفت المرآة اللعينة بالحجر الذي تحمله.. فانكسرت المرآة هذه المرة فاهتزت الأرض من تحت قدميها وانهارت المرآة تمامًا وتحول كل زجاجها لقطع في حجم حبات السكر تحت قدميها وظهر من خلفها جسر طويل من الخشب والحبال!

فصعدت عليه بلا أدنى تفكير.. إنها في الحجيم عينه فماذا يمكن أن يحدث لها أسوء؟!

كان الجسر يوصل بين الكهف وأرض أخرى بعيدة.. بها أشجار عالية.. واطمنت بنور النهار الذي ظهر حولها لا تعرف كيف؟!.. مشت كثيرًا فوق الجسر.. عشر دقائق.. نصف ساعة.. ساعة.. كان هذا إحساسها بمدة بقائها على الجسر..

ولكن الجسر يطول ويطول ويتأرجح من تحت قدميها كلما تحركت حركة ليست محسوبة الخطى.. هدها التعب فجلست قليلاً وسط الجسر على أرضه الخشبية ونظرت بحذر لأسفلها وأسفل الجسر، فوجدت مياة.. مياة كثيرة.. أشبه بمياة نهر !

إنها تجيد السباحة.. ففكرت إنه يمكنها القفز إلى هذا النهر ربما تصل إلى أرض.. ربما ينتهي كابوسها اللعين هذا الذي انهكها.. ربما تعود لطفلتها وبيتها.. وقفت لحظات تستجمع شجاعتها لتقفز.. لقد اكتشفت إنها مهما صارت على هذا الجسر لن تصل لشيءٍ أو جهة أخرى.. إنه أشبه بمتاهة بلا نهاية وكأنه جسر مسحور لا ينتهي.. فقط له بداية ولكنها نهايته وهمية في ذهنها فقط.. مجرد صورة غير حقيقية في عقلها.. لقد قدرت الوقت الذي بقيته عليه.. إنه وقت طويل كما ظنت...

وهذه الجهة الأخرى منه التي تقبع وسط الأشجار والخضرة فقط صورة ذهنية غير حقيقية.. تمامًا كالسراب وسط الصحراء.. وفكرت قليلاً لماذا لا يكون النهر أيضًا صورة ذهنية فقط في عقلها المحموم ؟!.. الذي ابتليت به.. إنها لم تعد قادرة على التفريق بين الوهم الخيال والواقع.. ولذا تساوى لديها البقاء على الجسر أو القفز في النهر.. الخطر موجود في الحالتين.. لذا عليها أن تجرب.. ماذا ستخسر ؟!

كادت أن تقع أكثر من مرة وهي تحاول الوقوف على قدميها وسط الجسر الخشبي المتحرك.. وهبت رياح شديدة فجأة جعلت الجسر يتحول لأرجوحة.. فتخبطت يمينًا وشمالاً وهي تتشبث بكل ما تبقى لديها من قوة بأسوار الجسر المصنوعة من الحبال الغليظة لتقف أخيرًا في وجه الرياح العاتية التي هبت من جهة نهاية الجسر وكادت أن تعيديها لداخل الكهف المظلم الخانق الأجواء مرة أخرى بكل مخلوته المرعبة ووحوشه الأسطورية.. وظهر بلا مقدمات «مازن» ابنها !

ظهر هناك في الطرف الآخر، من الأرض الذي يوصل إليها الجسر.. ويرتدي نفس الملابس التي كان يرتديها يوم كاد أن يأكل قطعة مخدر الحشيش التي كان يدخنها والده.. نفس البنطلون الأزرق القصير والـ «تى شيرت» الأصفر.. وكان وجهه أبيض يكاد يضيء من الصحة والجمال.. وشعره أسود وناعم ومصفف على جانب.. تمامًا كما كانت تفضل أن تراه دائما.. ويرتدي حذائه الرياضي الأبيض ويلهو فوق حصانه الخشبى الذي اشترته له في عيد ميلاده الأخير.. ووقتها عنفها زوجها على شراء لعب غالية كتلك لطفلهما الأكبر !.. كان رائع وكأنه طفل يسكن قصة خيالية وحوله زهور مختلفة الألوان والأرض من تحته جميلة الخضار.. فشجعها كل هذا وخاصة رؤية صغيرها.. فعادت تركض مرة

أخرى بجنون في محاولة مستميتة لعبور هذا الجسر الذي لا ينتهي ويتمدد طوال الوقت كلما مشت عليه.. كلما جرت عليه أكثر اكتشفت بعجز وحزن إنها لازالت في نفس مكانها وإنها بعيدة تمام البعد عن ولدها المفقود!

وقتلها التعب من الركض.. فعادت تجلس وسط الجسر وتتأمل صغيرها الذي لم يشعر بوجودها قريبة منه والذي لا تصل اليه مهما فعلت لتصل.. بل كان مشغولاً باللعب بحصانه ولم يدرك وجودها بعد !

كان يمكنها أن تتامله بلا نهاية.. يكفي أنها تراه.. يكفي أنه بخير أمام عينيها.. ربما يحدث شيء وتهرب من كابوسها أو جحيمها هذا!

استيقظت من فرحة رؤيته على عودة الرياح الشديدة مرة أخرى ولم يفيدها هذه المرة التشبث بشيء.. فمن قوة الرياح بدأ.. لا تدري كيف.. ينهار الجسر.. وأمسكت يائسة من النجاة بحبال الجسر فإذا بالحبال تتحول في قبضة يدها لرمال ناعمة.. ووجدت نفسها تهوى بسرعة لأسفل اتجاه النهر وتعجبت عندما ألقت نظرة وجلة على النهر من وجود صخور حادة به قد تقتلها ممزقة إربًا إربا لو وقعت عليها او على الأقل قد تكسر كل عظامها...

لحظات السقوط من الجسر وحتى تصل للنهر كانت طويلة.. وتذكرت بها الكثير من الذكريات.. تذكرت ليلة زفافها التي انتهت بفقدها لعذريتها.. وتذكرت أول يوم في رمضان لها في بيتها وكيف افتعل زوجها خناقة كبيرة فقط لأن الملح كان زائد في الطعام.. وتذكرت أيضًا لحظات الولادة التي مرت عليها مرتين.. وعندما أخرجوا ابنها من رحمها الذي حملته تسعة أشهر متعبة حملوه فورًا اسم والده وصار عار عليه لو ناده أحد باسم امه التي حملته وهنا على وهن.. وكادت تموت وهي تخرجه للحياة وتذكرت طفلتها «مي».. إنها صغيرة تحتاجها.. من سيعتني بها لو ماتت ودمعت...

قبل الوصول لسطح النهر والصخور القاتلة في حالة الوقوع عليها وجدت جسد ضخم يحملها.. ثم يرتفع بعيدًا محلقًا بها.. جلست على جسد المخلوق الذي حملها لتراه جيدًا.. إنه تنين كبير!

●●●

شبح فوق العادة !

طـار بهـا المخلـوق الكبيـر عاليًّـا.. إنـه يشـبه التنـين الـذي تـراه في الأفـلام الأجنبيـة.. لـه أجنحـة ضخمـة.. بـدأ كل شـيء صغيـر مـن حولهـا.. لقـد رفعهـا عاليًـا.. أعلـى حتـى مـن ناطحـات السـحاب التـي سـمعت عنهـا في بـلاد لـم تطئهـا قدمهـا التـي لـم تغـادر مصـر يومًـا.. لـم تتعـرف علـى مكانهـا.. وأي بلـد هـي بهـا.. وتطيـر فوقهـا.. فقـط هنـاك مسـطحات مائيـة وأشـجار كبيـرة.. ولا شـيء مميـز.. لقـد فقـدت قدرتهـا علـى التميـز بـين الواقـع والخيـال.. وأي خيـال هـذا.. الـذي يتخللـه ركـوب «تنـين».. إنهـا خائفـة مـن السـقوط.. إنهـا تهلـوس وتهـزى ولا تفهـم شـيئًا.. إنهـا خـارج قوانـين المـكان والزمـان والمنطـق والعقـل!

حياة بلا حياة

وبشر لا تعرف البشرية

وهناك وجع..بين الضلوع

هناك طفل بداخلي..

يبكي تحت برد المطر مفزوع...

والعجيب حقًا..

إنه ليس في عيني دموع...

فهل يبكي ميت..

تركوه في قبره..بلاشموع...

قلبه..صار..

لا يغضب..لايفرح..

لايتمنى..لايفتقد..

فقط قلبه صار..

شيء بارد..في ثلاجة الموتى

على أحد الأرفف..

بعيد عن..

مظاهر الحياة.. مرفوع...

ليست هناك حياة..

فقط...

وحوش ضارية في غابة..

الكبير يأكل بلارحمة الصغير..

وانتهى الموضوع...

والكل للظلم..

استسلام..ومنح بركاته..

صدقًا.. في عبث وخشوع...

وأغمضت عينيها.. التعب هو الإحساس الحقيقي المتبقي لها.. فكل ما حولها يخبر ما تبقى من عقلها المحموم بأنه محض هلاوس وتخريف روح هدها الحزن.. ونامت سريع حيث مكانها فوق ظهر التنين الطيب الذي أنقذها من الهلاك الأكيد!

«سيدتى.. هل أنت بخير اليوم.. لقد نمتي يوم ونصف.. وأنا لم أشأ أيقاظك.. الطبيب أخبرنى أنك بحاجة للنوم والطعام.. ولكنك كنت عاجزة عن الأكل لرغبتك الشديدة في النوم.. فتركتك للراحة»

فتحت يارا عينيها ببطء وحذر لتجد نفسها في سريرها أخيرًا.. ووجدت أمامها امرأة جميلة في مثل عمرها أو أكبر ببضعة أعوام كانت هي مصدر الكلمات السابقة.. كانت ممشوقة القوام ووجهها رقيق.. وترتدي فستانًا يبدو قديم التصميم به ورود بنية ولونه أخضر.. وتجمع شعرها في كعكة أنيقة خلف رأسها.. كانت تلك المرأة رغم بساطة مظهرها،

أنيقة وكأنها هاربة من أحداث فيلم أبيض وأسود.. كل شيء بها مرتب ووقور بعض الشيء.. كل شيء في تلك المرأة أعاد الهدوء قليلاً ل «يارا» التي عادت لتوها من زيارتها للجحيم ذاته.. ولكن من تلك المرأة.. تسألت يارا بينها وبين نفسها وكيف عادت لسريرها و.....

توقفت عن طرح الاسئلة على نفسها عندما ابتسمت «ناهد» وأكملت كلامها وكأنها قرأت ما في رأس يارا من حيرة:

«لقد أرسلني عم «توفيق».. الذي طلبتي منه منذ ثلاث أيام خادمة لتساعدك بالبيت.. أنا أسمى ناهد روماني متى.. أنا مسيحية.. النساء هنا ترفضني لهذا السبب.. زوجي مات منذ عام وأنا مضطرة للعمل وخاصة أني لا أملك شيء ولا حتى بيت خاص بي.. سأعمل لديك ولو حتى مقابل الطعام والسماح لي بالبيات هنا.. في أي مكان لايهم.. أعدك سأكون دومًا في خدمتك وتحت أمرك.....»

لم تستوعب يارا كثيرًا مما قالت ناهد ولكنها همست لها بتعب:

«أين مي ابنتى.. وكيف عدت لهنا ؟!.....»

تظاهرت ناهد بأنها لم تفهم ما قالت.. وردت على سؤالها كاذبة:

«ابنتك نائمة في غرفتها.. وأنا وجدتك أمس مغمي عليك أمام باب بيتك فحملتك لسريرك.. وكان رائع أن يمر دكتور «ضياء» من أمام البيت في تلك الساعة فناديته وقام بأسعافك.. أنه شخص رائع يساعد الجميع بلا مقابل.. فقط أفكاره مجنونة بعض الشيء ولكنه شخص ستحبيه جدًا.. أقصد ستحبي شخصيته الطيبة للغاية»

ابتسمت أخيرًا يارا فبدا عليها الاجهاد الشديد وقالت:

«من فضلك احملي لي طفلتي وأتى بها إليّ.. أريد أن أراها.....»

لم تخرج «مي» من عناقها لمدة ساعة وناهد تتأملها بنظرة حنونة وحسرة على فقدانها لأبنتها !

أطعمتها ناهد دجاجة صغيرة.. كما أعتنت بالصغيرة وحمامتها وبدلت لها ثيابها المتسخة وقامت كذلك بأطعامها علبة «زبادي» كاملة.. وفرحت يارا ب «ناهد» فرحة كبيرة.. أنها أشبه بالجنية الطيبة التي في وجودها يكون كل شيء بخير.. فالبيت صار نظيف في دقائق والصغيرة في سريرها تلعب.. ويارا نفسها وجدت من يهتم بها ويساعدها حتى في ارتداء ثوب نظيف.. وحتى شعرها القصير الأسود.. تفاجأت عندما

جلست ناهد خلفها على السرير القرفصاء لتعتني به وتمشطه له بعد أن عطرته بزيت الياسمين الفواح.. ثم وضعت عنوة ليارا القليل من أحمر الشفاه.. وتبسمت يارا في نفسها من فعلتها تلك.. ولكن ناهد قالت لها بوجه جاد ولكن يدفع من يراه للضحك:

«لا يجوز أن تجلس السيدة بعد الخامسة في بيتها بلا زينة وكحل لعينيها.. فربما يأتي لنا ضيف.. فأنت سيدة المنزل ويجب أن تكوني دائمًا في أبهى صورة.. وأنت جميلة سيدتي.. فقط أظهري جمالك وأهتمي به.....»

لم تتعود يارا أن يناديها أحدًا من قبل ب «سيدتي».. فرغم إنها مهندسة زراعية.. وتخرجت من جامعة القاهرة إلا أنها بمجرد زواجها برجل أقل منها علمًا، تحولت «لمدام» أو «البيت» أو في أحسن الاحوال في المرات القليلة التي تعد على الاصابع كان زوجها يناديها إذا خرج معها في الشارع باسم ابنها.. كان يناديها «مازن» !!!

وضحكت ولكن عينيها كانت دامعة.. لقد طمست ملامح روحها واختفى كيانها كإنسانة مستقلة لها اسم.. فقط لأنها تزوجت وأنجبت!

قطع أفكارها دخول ناهد عليها ومعها رجل!

كان شابًا في الثلاثين من عمره على أقصى تقدير.. متوسط الطول طيب الملامح.. بشرته بيضاء بعض الشيء ولكن يبدو أنه يتعرض للشمس كثيرًا فأكسبته لونًا أغمق قليلاً.. عينيه واسعة وشفاهه رفيعة وأنفه صغيرًا ولكن شامخ طوال الوقت.. ملابسه جميلة وعصرية جدًا.. وكأنه لا ينتمي لأهل الفيوم.. رائحة عطره كانت مريحة للأعصاب وجذابة للرغبة في المزيد من تنسمها.. كل شيء به كان مبهجًا.. إلا نظارة طبية كان يؤكد بها دومًا إنه قرأ الكثير من الكتب.. تأملته يارا الجالسة على السرير.. وهي تنتظر أن تقدمه لها ناهد.. التي شرعت متكلمة:

«هذا دكتور ضياء.. الذي أسعفك سيدتي.. لقد آتى ليطمئن عليك رغم مشاغله الكثيرة.....»

ثم رمقت ناهد دكتور ضياء بنظرة ماكرة وكأن بينهما شيء لا تعرفه يارا.. الممددة على سريرها مجهدة مما حدث لها.. فابتسم ضياء ابتسامة مريحة رغم تبادل النظرات الخبيثة بينه وبين ناهد.. ولكن يارا لم تلاحظ شيئًا.. إنها فقط تفكر كم سيأخذ منها هذا الطبيب مقابل خدماته الطبية.. فلا شيء كان يومًا مجاني في حياة يارا.. وهي تريد الحفاظ على المال القليل الذي تملك حتى تجد مصدر رزق مناسب.. وكأن ناهد قرأت أفكارها فسارعت تقول:

«دكتور ضياء.. يرفض دائمًا التعامل مع أي شخص يسكن قريتنا على أنه مريض عادى.. أنه يرى القرية بأكملها أسرته الكبيرة التي يرعاها مجانًا كلما أتى لزيارة أمه وأخواته.....»

تكلم أخيرًا ضياء بصوت هادئ مطمئن:

«من دواعي سروري التعرف عليك مدام يارا.. طمئنني على حالك الآن.. أتمنى أن تكوني أفضل.....»

ركز نظره على وجه يارا.. التي تعجبت من نفسها التي انتعشت فجأة لمجرد تقابل عينيها مع عيني ضياء العميقة.. وكأن يد رحيمة امتدت لقلبها وأشعلت مصباح قديم كان مطفئ به.. وقالت في تلعثم:

«أنا أفضل عما كنت.. فقط.....»

ترددت كيف تحكي له عن ما عانت.. فهل ماحدث لها كابوس مزعج.. أم هلاوس أم خيالات.. وتسآلت أين «فارس» الآن ؟!.. ذلك الشبح الشرير .. وهل هي وحدها القادرة على رؤيته؟ وهل سيظهر لها مرة أخرى ولماذا هو مختفي الآن؟.. قطع عليها حبل أفكارها صوت ضياء:

«لن يقترب منك مرة أخرى.....»

فسألته يارا:

«ماذا قلت يادكتور؟.....»

هي لا تعرف أن ضياء قادر على قراءة أفكارها بسهولة.. لا تعرف أنها كلما ارتاحت له كلما شعر بها أكثر وتمكن من التجول في ذهنها أسهل.. بل أنه قادر على جعلها تنسى مايريد أن تنساه وتتذكر ما يريد فقط أن تتذكره.. لا تعرف أنها كلما أطالت النظر له كلما تمكن من رؤية ماضيها في عينيها وكأنه كان شاهد عيان موجود في تلك الأحداث أو كأن تلك الحياة السابقة لدخولها هذا البيت تحولت لفيلم يشاهد أحداثه كلما أطالت النظر له!

«أنت بخير.. فقط اهتمي بنفسك قليلاً.. انصحك بالفاكهة الطازجة وشرب اللبن و.....»

ابتسم من استمرار تحديقها به كالمسحورة.. أو كالتي ترى رجل وسيم للمرة الأولى في حياتها.. أنها لم تنتبه له كرجل.. ولكن هي ترى به إنسان كان يجب أن تقابله منذ زمن ليكون كل شيء بخير في حياتها.. عاد للكلام مرة أخرى وهو يحاول إيقاظ انتباهها له بالتلويح في وجهها بصورة درامية مضحكة بحقنة أخرجها من حقيبته.. كمن يخيف طفل ليعود ويتعلق برقبته:

«هل تخافي الحقن.. الجميع أجمع إنى بطل العالم في إعطاء حقن غير مؤلمة.. هذه الحقنة حرفيًّا ستوعيدك للحياة صدقنى.. أنا دكتور ضياء.. الرجل الذي لا يكذب أبدًا إذا نصح.....»

كان يريدها أن تضحك ولكنها وهي تهم أن تضحك تذكرت أنه هناك شيء ضائع منها.. أنه مازن.. لماذا هو مختفي عن عينيها طوال الوقت منذ جاءت لهذا البيت ؟!.. قرأ ضياء أفكارها.. وقرر مسح تلك الذكريات الآليمة من رأسها ولو للحظات وتمنى لو كان قادرًا على مسح تلك الذكريات البشعة للأبد.. واستسلمت له ولناهد التي أمسكت ذراعها بقوة ليتمكن من وخزها بالحقنة وتعجبت عندما انتهى ولم تشعر بشيء.. أو ربما تألمت قليلاً وهو حذف تلك الذكرة هي الأخرى من رأسها.. من يدري؟!

أصرت ناهد على دكتور ضياء البقاء للعشاء.. فأصرت يارا أن تجلس ناهد معهما للعشاء جميعًا على المنضدة الكبيرة القابعة في الدور الأول من البيت والتي تكفي لعشرة أشخاص على حسب تقدير يارا.. مع أن ناهد كانت متقمصة شخصية الخادمة وكانت ترغب بتناول عشائها وحدها في المطبخ كعادة الخدم.. كان على سفرة الطعام أطعمة لم تكن موجودة في البيت وكذلك فاكهة لاتدري يارا من أين جاءت بها ناهد..

لقد توسط المائدة طبق كبير من «الكسكس».. وكان هناك صينية تحوى «بطة» كبيرة محمرة.. وسلطات كثيرة وحساء رائحته تسيل لها اللعاب.. وفطيرة بالقشطة وصحن كبير مملؤ بالفاكهة .. كان لدى يارا ألف سؤال تريد طرحه على ناهد.. ولكن تدخل ضياء ومسح الأسئلة من رأسها.. بل ومنح يارا نظرة طمأنينة جعلتها تأكل بشهية طفل أمه رجعت من سفر طويل وأحتضنته...

شرب القهوة شهية الرائحة والطعم حول مدفأة في ليلة شتاء.. كان أشبه بحلم جميل ليارا تحقق وخاصة مع شخصية ثرية كالدكتور ضياء.. إنها معه شبه مخدرة.. سعيدة خالية تمامًا من الأحزان.. به شيء غامض.. ولكنها تريد الوجود معه.. تريد النظر إليه.. تريد الخوض معه في ألف حديث وحديث.. وكأنها تعرفه منذ سنين وسنين.. وكأنه صديق طفولتها أو شيء إلى قلبها أحب.. مع أن هذا لقاؤها الأول به.. لا.. هي تعرف وجهه.. ولكن لا تتذكر أين رأته ؟!.. لا تعرف أنه الرجل الذي أخبرها بوفاة طفلها يومًا لأنه كان يعمل حينها بتلك المشفى.. وإنه الإنسان الأول الذي تلقاها بين ذراعيه عند انهيارها أرضًا بعد سماع خبر وفاة ابنها !

نظـر ضيـاء مـن خلـف الزجـاج شـباك صالـة البيـت وتمتـم قائـلاً لهـا:

«الجـو هـذه الليلـة سـاحر.. انصحـك بالخـروج قليـلاً مـن البيـت لتنشـق بعـض الهـواء.. هيـا معـي سـنخرج قليـلا.....»

نظرت له بتعجب من جرأته.. وقالت له:

«السـاعة الآن العاشـرة.. لا أسـتطيع مغـادرة البيـت.. وابنتـي نائمـة ولا يمكننـي تركهـا وأنـا أشـكرك للغايـة علـى تعبـك معـي وأتمنـى لـك ليلـة سـعيدة.....»

تكلمـت بسـرعة وكأنهـا تلميـذة مدرسـية تجيـب سـؤال غيـر واثقـة مـن إجابتـه.. وأرادت أن تصرفـه مـن بيتهـا بأسـلوب مهـذب ولكنـه نظـر في عينيهـا قليـلاً فخدرهـا بعـض الشـيء.. فكانـت واقفـة أمامـه كتمثـال شـمع يتنفـس ولكـن عاجـز عـن الحركـة.. فنـادى ناهـد وطلـب منهـا شـيئًا همسًـا في أذنهـا فاحتجـت رافضـة:

«ولكنها لن تحتمل مفاجأة تحولي لتنين أمامها....»

فعاد يهمس لها:

«في الصبـاح لـن تتذكـر شـيئًا.. سـأمسـح مـن عقلهـا أي ذاكـرة لا نريدهـا ولكنهـا سـتكون أفضـل حـالاً.. إنهـا تحتـاج للفـرح

والإحتواء وأنا وأنت فقط من يملك مساعدتها.. الجميع تخلى عنها.. كوني طيبة ورحيمة يا ناهد كما أنت دومًا.....»

ثم قبل رأس ناهد التي ابتسمت ونظرت للأرض ثم اتخذت من مكان فسيح في الحديقة.. بقعة لها، لتعود فيها إلى صورة ذلك التنين الذي حمل يارا من الهلاك إلى بيتها!

إنها تتحرك وتبتسم ولكن عاجزة عن الاستيعاب.. تريد أن تسأل ضياء ماذا يحدث لها ولكنها كلما نظرت له محا الأسئلة من رأسها.. ووجودها معه على تنين طائر وسط السحاب.. كان حلمًا رائعًا ولكنها مخدرة تمامًا.. عاجزةً عن الركض خلف أفكارها التي تطلب منها القفز من فوق ذلك التنين ربما تستيقظ من حلمها غير العادى هذا.. ولكن ضياء كان تقريبًا يحتضنها بكل ما ملك من قوة.. لقد جلس خلفها ليشير لها على الأماكن التي يطير فوقها التنين أو «ناهد».. تلك الروح الطيبة التي تحبها بلا مقابل والتي اقنعت ضياء بمساعدتها لتخطي أزمتها النفسية بعد فقدها ابنها وزوجها.. ف «ناهد» امرأة فقدت ابنتها وزوجها وحتى نفسها وتعرف مرارة الفقد وقسوته...

دقائق قليلة ووجدت يارا نفسها تحلق فوق أهرامات الجيزة.. ودون وعي وجدت نفسها تكتم شهقة من روعة المنظر

من تحت أقدامها التي كانت لا تلامس أي شيء.. فنظرت لدكتور ضياء الذي كان خلفها سعيدًا بخروجها قليلاً من دائرة أفكارها القاتلة وهمس لها:

«هذه أهرامات الجيزة.. يعتقد كثيرًا من الناس أن عظمة الهرم تكمن في طريقة بنائه، وفي الواقع، إن لحديثهم هذا جانبًا من الصحة، فالهرم الأكبر على سبيل المثال عبارة عن جبل صناعي يزن ستة ملايين وخمسمائة ألف طن.. وهو أحد أكبر الألغاز التي واجهت البشرية منذ مطلع الحضارة.. لقد ادعى كثيرون أنه مجرد مقبرة فاخرة للملك خوفو.. ولكن علماء العصر الحالي يعتقدون أن هذا الرأي يثير السخرية.. فقد تم بناء الهرم الأكبر لغرض أسمى وأعظم من ذلك بكثير..

فارتفاع الهرم مضروبًا بمليار يساوي ١٤٩٦٧٠٠٠ كم وهي المسافة بين الأرض والشمس، والمدار الذي يمر في مركز الهرم يقسم قارات العالم إلى نصفين متساويين تمامًا، وأن أساس الهرم مقسومًا على ضعف ارتفاعه يعطينا عدد ثابت الدّائرة الشهير (٣,١٤) الوارد في الآلات الحاسبة.. وأن أركان الهرم الأربعة تتجه إلى الاتجاهات الأصلية الأربعة في دقة مذهلة....»

فقالت له بابتسامة:

«يبدو أنك قرأت كثيرًا عن الأهرامات.. أنا أيضًا كنت في الماضي البعيد مدمنة كتب وخاصة كتب التاريخ ولكني.. تزوجت.....»

وكادت أن تدمع عينيها.. ولكنها قررت التعامل مع ما يحدث لها على أنه حلم.. والأحلام لا يليق بها البكاء.. فاحتضنها بنعومة وعاد يكمل شرحه وهو ينقل إصبعه مشيرًا إلى الهرم الأكبر والهرم الأوسط:

«ومن أهم ما يبهر في إنشاء هذه الأهرامات هو كيفية دقّة إنشاء الممرات الداخلية وغرف الإنتظار وغرفة دفن الملك..

أما بالنسبة إلى هرم الفرعون «منقرع» فقد لاحظ العلماء أنه يحوي فجوة دائرية صغيرة لا يتجاوز قطرها ٢٠ سم.. وتمكن علماء الآثار من معرفة سر وجود تلك الفجوة بعد ملاحظة دقيقة للغاية، إذ تبين أن أشعة الشمس تدخل من خلال تلك الفجوة يوما واحدًا فقط في السنة إلى قبر الفرعون تمامًا، والأعجب أن هذا اليوم يتفق مع عيد ميلاد الفرعون !»

كانت فرحة كطفلة في نزهة مدرسية محببة لقلبها.. كانت تريد أن تسأله.. من أنت؟!.. أو ماذا تكون؟!.. ولكنه كان يمحو

السـؤال مـن علـى طـرف لسـانها ويمنحهـا مكانـه شـعور جميـل بالسـكينة والطمأنينـة التـي أفتقدتهمـا مـن سـنين عجـاف طالـت وتركتهـا مخلـوق موجـوع !

في معبـد الكرنـك بمدينـة الأقصـر.. كانـت المحطـة التاليـة لرحلتهـا الغيـر مقدسـة ولكنهـا رحلـة.. أسـعدتها حقًـا.. فعـاد يهمـس لهـا ضيـاء:

« نحـن هنـا في أكبـر دار للعبـادة لـه سـور علـى وجـه الأرض.. ومعبـد الأقصـر.. يقـع علـى الضفـة الشـرقية لنهـر النيـل بمدينـة الأقصـر.. رائـع اليس كذلـك؟!»

أنـه وسـيم حقـا.. حتـى في الضـوء الخافـت عينيـه تلمـع وسـنه يضحـك وعطـره الطيـب يفـوح ويحتويهـا.. ولكنهـا همسـت لـه قبـل أن ينتبـه ويمنـع سـؤالها:

«ابنتـي.. هـل هـي بخيـر؟!.. أنـا سـعيدة ولكنـي أتمنـى الاسـتيقاظ مـن هـذا الحلـم والعـودة لهـا.....»

ضحـك عاليـا وقـال لهـا بوجـه مضـيء كقمـر مكتمـل رغـم مـا حولـه مـن ظلالـم:

«أنـا المسـئول هنـا في حلمـك.. وأتمنـى أن تتاكـدي أن «مـي» بخيـر في سـريرها وتنعـم بالـدفء اطمئنـي والملائكـة مـن حولهـا

تحميها.. فقط استمتعي قليلاً أنا لن أخطفك.. فقط حاولي الاسترخاء وتحرري من أغلالك الفكرية القاسية.. ثم انظري هناك.....»

وأشار لها إلى مدائن صالح كانت تسمى سابقًا باسم مدينة الحجر، والتي تقع في مدينة العلا بالمملكة العربية السعودية.. ومدينة الحجر هي اسم ديار قوم ثمود المذكورين في القرآن الكريم.. فانبهرت.. أنها حقا تحلم.. لقد غادرت مصر في بضع دقائق أو أقل.. ليتها تستيقظ من هذا الحلم العجيب.. يبدو أنها تهذى وتكاد تفقد عقلها..

وعاد يمازحها ويتلاعب بعقلها حتى وصل بها «سوريا».. حيث مدرج بصرى.. وهو يقع في القلعة الأثرية بمدينة بصرى السورية ويقال أن بناء المسرح تم بعد عام ١٠٦م من قبل الرومان ويشتهر بكثرة مخارجه، والتي تمكن الجمهور الذي يحضر العروض الفنية به من الخروج خلال دقائق قليلة.. ثم طار بهما التنين إلى قلعة الحصن.. وهي قلعة تقع ضمن سلاسل جبال الساحل السوري في مدينة حمص.. شيدها المرداسيون عام ١٠٣١ ميلاديًّا، وتعتبر واحدة من أهم قلاع القرون الوسطى..

ثم انتهى بهما المطاف في معبد بل.. الذي يقع في مدينة تدمر.. وتم بناؤه عام ٣٢ م على أنقاض معبد آخر.. كان مقرًا لمجمع الأرباب التدمريين..

وفي «العراق» رآت حدائق بابل المعلقة وهي إحدى عجائب الدنيا السبع في العالم قديمًا.. المنسوبة إلى الملك البابلي «نبوخذ نصر» الثاني، الذي حكم بين العامين ٥٦٢ و ٦٠٥ قبل الميلاد.. وقيل بأن سبب بنائها هو إرضاء زوجته ملكة بابل.. والتي افتقدت المعيشة في تلال بلاد فارس وكانت تكره العيش في أرض بابل المسطحة.. لذلك قرر الملك «نبوخذ نصر» أن يسكنها في مبنى فوق تل وعلى شكل حدائق بها تراسات..

ثم حلق التنين فوق برج خليفة.. وهو ناطحة سحاب تقع في إمارة دبي بالإمارات العربية المتحدة، ويعد برج خليفة أعلى بناء شيده الإنسان وأطول برج في العالم بارتفاع ٨٢٨ مترًا.. أما عن «لبنان» فقد بهرت وجذب انتباها أعمدة بعلبك التي تقع في منطقة بعلبك اللبنانية والتي أنشأها الرومانيون وتتميز بارتفاعاتها الشاهقة وهي الآثار الباقية من معبد «جوبيتر» الضخم واعتبرها البعض إحدى عجائب العالم القديم..

وفي «تونس» رآت مسرح الجم أو قصر الجم.. وحكى لها بصوته العذب أنه قد أقيمت في مسرح الجم، في العهد

الروماني، مصارعات الوحوش ومعارك المصارعين وسباقات العربات، حيث كان الشعب والنبلاء الرومانيون يجلسون لمشاهدة تلك الاستعراضات وأنه قد صار قصر الجم، حاليا، مقصدًا لأشهر الفنانين والموسيقيين العالميين، إذ تقام فيه سنويًّا مهرجانات وحفلات لأهم الفرق العالمية، خاصة منها السمفونيات وفرق موسيقى الجاز..

أمّا عن «الجزائر».. فكانت مدينة جميلة في ولاية سطيف هي محطتهما.. و هي عبارة عن مدرج روماني واقع في شمال شرق الجزائر وهمس لها عندما لمح عينيها تلمع من فرط الجمال الذي تشاهده أن:

«اليونسكو صنفت هذه المدينة كواحدة من مواقع التراث العالمي»

والمحطة قبل الاخيرة كانت «المغرب».. تحديدًا قصر باهية.. وهو قصر يعود إلى القرن التاسع عشر، وكان في السابق مسكن لحريم السلطان أحمد بن موسى، ولكنه لا يزال يتميّز بالروح المغربية البحتة من خلال الديكورات الداخلية والزركشات على السقف والخشب..

ولم ينسَ أن يذهب بها إلى فلسطين ليبصق معها من فوق السحاب على جنود الاحتلال الاسرائلى الذين يخنقون القدس ليل نهار بحصارهم الوحشى له ولأهله !

قالت له وهي تغالب رغبتها الشديدة في النوم:

«أشكرك.. هذه رحلة العمر.. حتى لو كانت مجرد حلم !.. وأنت حقًا غزير المعلومات.. تعرف عن الوطن العربى الكثير»

فرد عليها:

«أنه ليس مجرد وطن.. أنه طائر جريح له أجنحة ضخمة ولكنه عاجز عن التحليق !!»

تقريبا نزلت من فوق التنين نائمة في وداعة طفل انهكه اللعب.. فحملها ولم يفلتها من بين ذراعيه إلا في سريرها.. وخلع عنها حذائها وفرد عليها غطاء ناعم الملمس وانصرف أو ربما فقط اختفى عن نظرها من يدري ليجلس في ركن خفي يراقب نبضات قلبها وهدوء ملامحها وهي تغط في نومها وأحلامها التي لن تكون بروعة ما قدمه لها!

●●●

حجرة المرايا!

خالية أنا!

من كل شيء وأي شيء.. حتى المعلومات الغزيرة التي حاربت سنين طويلة قاسية لأسجنها في رأسي.. هربت مني وتركتني صفحة بيضاء.. مشاعري مغلقة للتحسينات.. ولكن ليس هناك أي تحسينات قادرة «أنا» على صنعها.. فقط فراغ يملأني ويعصرني ويجبرني على الصمت.. وأي صمت.. إنه صمت طويل أسود بلا بداية ولا نهاية محتملة.. وقلبي.. ذلك المناضل المرابط بين ضلوعي هناك يد خبيثة عبثت به وأغلقت مصباحه الوهاج.. وتركتني لظلامي.. ما أقسى تلك اليد!

لعلى مدينة منكوبة.. تخلى عنها سكانها.. أو لعلى قرية ظالمة!.. أهلكها الله.. وعمها الخراب.. أو لعلى في اختبار طويل قاسي يرعبني السقوط فيه.. ويرعبني أكثر احتمال المزيد منه!

أشعر ببرد في الروح، ولا يوجد غطاء و لا رداء لتدفئة برد الروح.. أنا اليوم أكثر وحدة مما كنت..معزولة أكثر مما كنت.. بيني وبين العالم ضبابة تمنعني من رؤية الأشياء كما هي في حقيقتها، كما هي بالنسبة للاخرين...

قطع على «يارا» أفكارها الحزينة دخول «ناهد» عليها الحجرة.. التي خرجت عن تحفظها للمرة الأولى وارتفع صوتها دائم الهمس بنبرة رزينة قائلة لها حيث كانت ما زالت بين النوم واليقظة تجلس على سريرها رغم تجاوز الساعة الحادية عشر صباحا:

«سيدتي.. لدى شيء جميل أتمنى أن تأتي معي لتريه....»

كلما نادت ناهد.. يارا.. ب «سيدتي».. وجدت الأخيرة نفسها تبتسم.. لقد توقف الناس منذ أمد طويل عن استخدام تلك الكلمة رغم أن الفروق الطبقية لم تختفِ يومًا بين خلق الله.. وعندما لم تحرك يارا ساكنا استجابة لطلب ناهد.. تحررت ناهد للمرة الثانية من تحفظها وجذبت يارا من يدها مخرجة إياها من سريرها وهي تقول:

«هيا بسرعة.. سيفوتك الكثير لو لم تقومي حالاً معي....»

واخيرًا استجابت يارا وغادرت مكانها سيرًا وراء ناهد التي أخذتها لسطح البيت عبر سلم خشبى صغير.. وعندما استويا فوق سطح البيت طلبت منها ناهد الصمت التام والمشي ورائها في هدوء تام.. حتى وصلت بها إلى مجموعة من الاخشاب مكومة فوق بعضها يعلوها أريكة قديمة مكسورة الارجل..

كانت يومًا جزءًا من صالون أو شيئًا مثل هذا.. وعندما دققت يارا النظر كما أشارت لها ناهد اتجاه الأريكة وجدت عليها عش صغير يحمل بيضتان صغيرتان وفوقهما تجلس يمامة لها ريش متعدد الألوان ما بين البنى والأسود والأبيض.. وابتهجت يارا ببشرة الخير هذه.. فلطالما تردد في الأساطير الشعبية أن دخول اليمام أو الحمام البيوت والبيض بها يجلب الحظ السعيد لأهل البيت...

همست يارا لناهد:

«شكلهم جميل جدًا.. ولكن أرجوك يا ناهد أعتنى بهم وقدمى لهم الماء والحبوب.....»

فأبتسمت ناهد أبتسامة رقيقة لم تظهر منها أسنانها ثم ردت على يارا:

«هذا يمام بري.. يعتني بنفسه وبصغاره.. الأم والأب سوف يتولا حماية البيض ورعايته.. وبالنسبة للطعام فالأم ستطير كل يوم لتأكل وتشرب وتعود سريعًا لتدفئة البيض وخاصة أن المكان حولنا غنى بالأشجار والماء.. لا تقلقي.. إن الله علمهم كيف يعتنوا بأنفسهم.. أحيانا أظن أن تلك المخلوقات الرقيقة أزكى من البشر في بعض النواحى.. فهم لا يتخلون عن صغارهم

مهما كانت الأسباب ويفعلون المستحيل لحمايتهم.. انظري مع الأيام وسترى تصرف تلك اليمامة الأم وزوجها من اليمام مع صغارهم.. أعدك ستعلمي منهم الحياة التي يجب أن تكون بين الناس.. الحياة الحقيقية التي لا يتخلى فيها القوى عن الضعيف ولا ينسى فيها الوالد ولده....»

كلمات ناهد كانت بردًا وسلامًا على روح يارا.. ولكنها لا تدري لماذا شعرت بوجع بقلبها شوش عليها شعورها بالسكينة؟!.. وعادت تنظر حولها بحثًا عن شيء.. هي لا تتذكر ما هو ؟!.. أو حتى لماذا لا تجده ؟!.. ومرة أخرى جذبتها ناهد من يدها كطفل تائه للنزول لداخل البيت.. وتركتها دقائق قليلة مع أبنتها «مي» التي أستيقظت ذات مزاج رائق جعلها تبتسم لكل شيء وأي شيء.. فما كان من أمها إلا أنها أحتضنتها مليا ومكثت تلاعبها وتغنى لها وتعوضها غياب أبيها...

صدمة رؤية فارس لناهد زوجته.. وهي أخيرًا تخرج عن صمتها الذي دام فوق المائة عام.. كانت صدمة كبيرة لدرجة جعلته يحاول الاختباء منها ليل نهار في حجرة المرايا.. أنها حجرة سرية لها باب سحري لا أحد يعلم طريقة فتحه سوى فارس.. حجرة لا تزيد مساحتها عن عشرين مترًا.. جميع حوائطها من المرايا.. أنشأها فارس ليقابل بها شيطانه الذي سيطر على روحه

سنوات وسنوات.. كان يجلس بها ويقيم طقوس غريبة تبدأ بذبح طير ثم تلويث أرضيه الحجرة بدم ذلك الطائر المسكين.. حتى تتحول بلاطاتها من اللون الأبيض إلى اللون الأحمر القاني.. ثم يشعل البخور ويردد تعويذة حفظها له شيطانه.. كل هذا وهو عاري كما ولدته أمه.. وعندما يحضر شيطانه الذي أحبه أكثر من أمه وأبيه مجتمعان.. يحتضنه ثم يخبره ما يريد منه.. فكان أحيانًا يسلطه على تاجر يكره ويطلب منه أن يوسوس لهذا التاجر كي يشعر دائما بالحزن والعجز والقلق أو أن يحرضه على زوج إمرأة تمنعت على فارس ورفضت صداقته.. فيشك هذا الزوج في زوجته حتى تتفاقم بينهما المشاكل.. لم يجلب له شيطانه المال بصورة مباشرة ولكن كان يستخدمه كمحرض خفي لخلق الله على أنفسهم.. فكان ينتقم من أعدائه بأيديهم.. فقط يوسوس لهم ليحققوا مطلبه !

لقد شعر فارس بالضيق وضعفت قواه بمجرد رؤية ناهد.. وظهور روح «ضياء» أيضًا.. وشعر أنه لما يزيد عن مائة عام كان مخدوع ومغفل.. كيف خدعته ناهد وتظاهرت بالصمت والبقاء جثة هامدة كل هذا الوقت ؟!.. إنها تنتقم منه الخبيثة وتعاقبه.. تكلم صوته الجواني في مرارة.. وشعر بالنار تخرج من أذنيه من شدة الغضب.. وقرر أن عقابها سيكون آليم..

ولكن ضياء هذا الصبي الذي كان يومًا يلهو في حديقة البيت بمجرد موته وهو شاب مكتمل الرجولة تعود روحه اسيرة هذا البيت.. أنه لازال يذكر طفولة ضياء الذي تعود اللعب وهو لا يزال في العاشرة بالكرة في حوش منزله المهجور.. ولم يكن يتعرض له بسوء لأنه كان يتسلى بمشاهدته هو وبعض الصغار من حوله ويتسلى أحيانًا بإخفاتهم واخفاء الكرة التي يلعبون بها.. كانوا تسليته لبعض الوقت.. ولكن ضياء لم يصون الجميل وبمجرد موته عاد يزاحمه هو الآخر في بيته.. لماذا لم تظهر روحه في مكان آخر.. ما الذي يربطه بهذا البيت.. هل هي ذكريات الطفولة واللعب والبراءة ؟!.. كان صوت فارس الجواني لا يكف عن الحديث له في خلوته الاجبارية في حجرة المرايا بعيدًا عن ناهد وضياء.. !

لقد مات وسواسه الخناث منذ عقود.. فالجن والإنس يموتون.. وتسلم راية الشر من بعده أحد أبنائه.. ولكن لم تدب صداقة حقيقية بين فارس وهذا الزعيم الجديد.. فقط معرفة يصعب معها طلب خدمة مما كان يقدمها الأب بلا تردد.. طالما إنها من الشر وإلى الشر والهدف إيذاء البشر..

في حجرة المرايا.. اختبأ فارس وهو يعلم جيدًا أنها الحجرة الوحيدة بالبيت التي لن تتمكن أي روح سواء روح ناهد

أو روح ضياء أو غيرهما من العثور عليه فيها.. فهذا عهده مع الشيطان تأمين غرفة المرايا من اختراق الأرواح لها مهما كانت قوتها.. ولكن حجرة المرايا لها ميزة أخرى.. قدرته على حبس الأرواح بها وإفاقدها قدراتها.. وابتسم لنفسه وهو يعد خطة صغيرة لحبس روح ناهد وضياء بها.. ربما حبسهما للأبد.. إن السبيل الوحيد ليتحررا من هذه اللعنة.. لو استطاع حبسهما بها هو الاستجابة للضوء والقبول بالذهاب إلى العالم الآخر وتلقي الحساب بشجاعة ومن ذا الذي يجروء على لقاء عمله وجها لوجه ودفع فاتورة سيئاته.. وابتسم لنفسه بخبث وهو يتأمل صورته في المرآة.. لازال وسيمًا وساحرًا للنساء ورقص رقصته الشيطانية قبل خروجه من الحجرة سعيًّا وراء اصطياد روح ناهد وضياء وحبسهما!

تمثل لناهد في صورة طفلة صغيرة تجري في البيت باكية دون أن ترى وجهًا لها.. لقد حرص على ذلك.. فظنتها روحها ابنتها وطاردتها في جميع إنحاء البيت حتى حجرة المرايا التي كانت شرك لها وأغلق بابها خلفها بمجرد دخولها بها.. ثم تمثل لضياء في صورة أخيه التوأم الذي مات صغيرًا.. وكان دائمًا يلعب معه في حديقة هذا البيت حتى مات في الثالثة عشر غرقًا.. وعندما تمكن من استدراجه داخل الحجرة مع

ناهد أغلق الحجرة عليهما مهنئ نفسه على براعته في اختيار نقاط ضعفهما.. فناهد لازالت تحن لطفلتها الوحيدة وضياء لطالما طاف بهذا البيت وهو على قيد الحياة بحثًا عن ذكريات لعبه وطفولته مع أخيه المتوفى.. وظن أنه أخيرًا تفرغ ل «يارا» ضحيته الجميلة التي يلهو بها ويلهو معها.. والتي سيعذبها حتى تغادر صاغرة بيته.. ولكن لن تخرج كما دخلت.. فهو لن يتركها قبل أن تفقد عقلها تمامًا لتكون عبرة لمن يحاول اقتحام بيته حتى بعد مائة عام أخرى...

تجسس عليها وهي تجلس مع ابنتها في صالة البيت.. وتمتم لنفسه:

«ستخرجي من هنا ياحلوتي إمّا على المارستان أو منتحرة.....»

وأرسل لها قبلة في الهواء.. طبعها على كفه ثم نفخ فيها بصورة درامية لتصل إليها.. مع أن يارا لم تكن تراه أو حتى تسمعه.. شعرت لحظتها بحر شديد هب عليها رغم أن الجو شتاءًا وتملكها صداع قاتل يكاد يمزق أوردة رأسها !

ظهر فارس أمام يارا فجأة في صالة البيت حيث تجلس وحدها تقرأ مجلة قديمة وجدتها.. وارتفع صوت موسيقى شعبية

صاخبة غير معلوم المصدر.. فنظرت إليه مصدومة.. كان وسيم كشيطان جميل ويرتدي بدلة كحلية ويمسك بيده عصاه بيضاء ذات رأس ذهبية اللون على شكل رأس أسد أو نمر لم تميز يارا من رعبها.. وعلى رأسه قبعة بنية قديمة الطراز.. وكأنه أحد أبطال الأفلام الأجنبية القديمة ذات الطابع الاستعراضي.. وارتفعت الموسيقى وبدأ هو في الرقص والتمايل وابتسامة عريضة تعلو شفتيه الرفيعة.. ثم جذبها من يدها وكأنها مخدرة وأوقفها بين ذراعيه وأخذ يدفعها بأطراف أصابعه في كتفها وصدرها لترقص معه.. كانت تتألم كلما قرب أصابعه منها.. كلما جذب جسدها النحيل نحوه لتراقصه.. أن القرب منه كالقرب من الجحيم نفسه أو أشد قرفًا.. جسده مرتفع الحرارة للغاية.. ورائحته غير مريحة بالمرة.. رائحته أشبه بطعام فاسد أو شيء أسوء.. تجعلك ترغب بإفراغ ما في معدتك فورًا.. رائحته كريهة جدًا.. رغم شكله الذي لا يدل على ذلك.. ولاحظ هو نفورها منه فمثل عليها الحزن والتأثر قائلاً:

«آسف يا حلوتي لو رائحتي تزعجك.. فقط لم استحم منذ أكثر من مائة عام.. ولكني لا زالت وسيم.. أليس كذلك؟!.. أرجوك أرقصي معي قليلاً وتحملي رائحتي.. أنا شبح وحيد ومسن وأحتاج منك القليل من العطف»

رغم سذاجة يارا وحالتها النفسية غير السوية.. لم تنخدع بكلمات فارس.. إنه كابوس حي أمامها.. وتمنت لو أنه فقط خداع من عقلها وفارس ما هو إلا هلوسة من عقلها الذي تحمل فوق طاقته من الأحزان.. ولكنه عاد ينخزها بإصبعه في كتفها وكان الآلم لا يحتمل.. فعرفت إنها بين يدي من لا يرحم.. فقررت مسايرته ببضع خطوات.. ممثلة بها إنها استجابت لطلبه بالرقص معه.. إنها تكره وتكره القرب منه وتكره العذاب الذي تراه على يداه ولكنها لن تستجيب لطلبه وتغادر البيت.. هذا بيتها.. ولن تغادره إلا جثة.. أفعل ما تشاء بي يا فارس.. لن أغادر.. هكذا همست لنفسها!

أن الحياة لن ترحمها لو عادت إلى الخارج بلا بيت.. أن الانسان بلا بيت ذكرى انسان.. كأنه عاري في شارع مزدحم والجميع بقصد وبدون قصد يصطدم به ويعبث بأوصاله.. فالبيت يعنى حريتها في التقدم والحياة.. يعني استمرار قدرتها على قول «لا» لأي شيء يدفعها للعودة للوراء.. يدفعها لوضع عقلها في خزانة يملك مفتاحها أب أو زوج أو حتى أخ!

ورقصت مع الشيطان.. رقصة مؤلمة لا تعلم كم استمرت.. تقتلها رائحته النتنة والحرارة المنبعثة منه وابتسامته الشيطانية.. التي تشبه ابتسامة مصاصى الدماء.. وكلما

اتسعت ابتسامته شعرت أنه سينقض عليها ويعضها.. ويقطم منها جزء ثم يمضغه للحظة ويمتص دماءها منه ثم يبصقه على الارض.. ولكنه لم يفعل شيء من هذا بل أكتف بتنشق رائحة الخوف المنبعثة منها.. فتلك الرائحة تزيد قوته وتسعد قلبه كمن تعاطى جرعته المثالية من مخدره.. ولكنها وصلت لمرحلة عجزت بها عن التقدم خطوة واحدة منه والاستمرار في الرقص معه.. لقد تعبت قدماها وتقريبًا بدأت في التورم وجسدها يتصبب عرقًا من الحرارة الصادرة منه.. ومعدتها تؤلمها من الغثيان الذي سببته الرائحة البشعة الصادرة منه.. إن كل شيء صارد منه مقزز.. وكادت أن تفقد وعيها.. فعاد يؤلمها وينخذها بإطراف أصابعه.. التي رغم شكلها العادي كيد أي إنسان إلا إنها مؤلمة كأسياخ حديدية مصنوعة في الحجيم نفسه.. حادة وساخنة للغاية!

إن الخطر الوحيد عليك في هذا الكوكب.. أن يعلموا عنك أنك قادر أن تفكر.. أي أنك قادر تميز غبائهم.. ثم معارضتهم!

لذا قررت أن تخدع فارس قليلاً.. قائلة:

«أنت تريد مغادرتي البيت.. أليس كذلك ؟!.. لماذا لا تسمح لي بالبقاء.. وأنا أيضًا سأتركك في حالك.. ليكن لك جزء من البيت لا أعبره مهما كان السبب.. وأنت أيضًا تكف عن

مضايقتي.. أنت شبح.. وأنا مشكلتي مع البشر فقط.. هم فقط من ضيعوا طفلي.. اتركني لحالي وأتركك لحالك.. حتى أنت تعيش في زمن وأنا أعيش في زمن أخر.....»

صدرت عن فارس ضحكة رقيعة متهكمة واحمرت عينيه العسلية وانتفخت اوداجه.. وبدا مرعبًا كشيطاطين الإنس وهو يصرخ في وجهها المرتعب من هيئته:

«أنت ياصغيرة تحاولي التذاكى علي.. وهذا خطر عليك.. هذا بيتى شئتي أم أبيت.. لن أقتسمه مع أحد.. ستغادري هذا البيت بدون شك.. وبعد أن تسليني قليلاً!»

«أسليك؟!.. أنت لا سلطان لك على لتجبرني لأفعل شيء لا أريده أنت شبح أحمق.. لماذا لم تدافع عن نفسك يوم قتلت ؟!.. حقا أنت تثير شفقتى ياعجوز.. اذهب عني.. أنا أحذرك.. غادر فورًا ولا تعد مطلقًا.. هذا بيتي.. لقد نقلت جارتي الطيبة ملكيته لي»

اكتشفت يارا أنها تصرح في وجه فارس وهي تتكلم.. وأنها ما عادت تخافه.. بل تراه مضحكًا أحيانًا.. فضمها إليه حتى كادت ضلوعها تتداخل في بعضها البعض وعنوة طبع قبلة على شفتيها فشعرت كمن لسعتها حية.. وعندما تركها وجدت نفسها

في مكان مخيف مهجور.. مع أنها منذ لحظات كانت في صالة بيتها بالفيوم.. وفكرت أي جحيم ألقاها به فارس للمرة الثانية بعد حجيم الكهف الذي خرجت منه بأعجوبة بمساعدة ناهد؟!

هي الآن وسط شارع كبير.. مرصوف جيدًا.. به بيوت لا تزيد عن دورين.. والوقت ليلا.. ولكن الشارع مضاء.. هناك ثلج يتساقط من السماء.. ولا احد هناك غيرها.. حتى سمعت صوت بيانو يعزف عليه شخص ما.. قطعة موسيقية ليست غريبة على أذنها ولكنها لا تعرف اسمها أو من آلفها.. فمشت وراء الصوت.. حتى وصلت لنهاية الشارع ومع ذلك لم تقابل بشر أو حتى كلب أو قطة.. وكأنها مدينة مهجورة.. ولكن مازال الصوت مستمر.. فأستمرت بالسير والبحث عن مصدره.. تذكرت أنها أول مرة استمعت لتلك القطعة الموسيقية كانت في مسرح الجامعة.. وأنها وقعت في غرام زميلها الذي كان يعزفها.. وظلت لسنوات تحبه في صمت وعاجزة عن لفت نظره إليها أو حتى فتح أي حوار معه.. كان زميلها هذا أشبه بنجم سينمائي وسيم وله شخصية ذكية تجذب الجميع.. وكان والده طبيب مشهور.. وكان يأتي الجامعة بسيارة فارهة كما يقولون.. كل هذا جعلها تدرك أنها تعشق قمر لن تلمسه يومًا إلا في أروع أحلامها.. فأدركت إنها من طبقة اجتماعية أقل في

كل شيء واكتفت بحبه سرًا وكانت تتبع أخباره من بعيد حتى وقت قريب..

تتبعت الصوت في صبر.. وهي تردد لنفسها.. إن ما هي فيه الآن فقط خيال.. أو هلوسة هيأها لها فارس كعادته الشريرة.. حتى وجدت في نهاية شارع مظلم.. بيانو !.. ويعزف عليه.. من؟!.. إنه زميل الدراسة الذي لم تراه منذ سنوات.. كيف؟!.. تساءلت بينها وبين نفسها.. أنها تهذي.. وكان الحل أمامها أن تنادي عليه:

« «تيام».. هل هذا أنت ؟!.....»

وعندما سقط بعض النور على وجهه أخيرًا أدركت أنه هو.. فبدأت بالركض نحوه بكل قوتها.. كانت تريد أن تصل إليه وتضمه.. فلو كان هذا حلم ما ذنب عليها لو ضمته.. لو ضمت حب عمرها.. ولو للحظات في الخيال...

واقتربت منه ووجدته هو حقًا تيام.. صاحب قلبها الذي يرقص له الوجدان كلما لمح طيفه أو تذكر لمحة تخصه.. وبمجرد شعور تيام بقربها.. هم واقفًا ومنحها اروع ابتساماته.. وجذبها من يدها بمنتهى الرقة وسألها:

«كيف حالك؟!.....»

لـم تتوقـع أن يمنحهـا فـارس هـذه المـرة هلوسـة سـعيدة.. كمـا يحـدث لهـا الآن.. فكانـت شـاكرة لفـارس هـذه المـرة علـى عبثه بعقلها واحضـار تيـام لهـا ولـو في الخيـال.. فهـي تعـرف إن مـا حولهـا مـن المدينـة المهجـورة إلـى الثلـج المتسـاقط إلـى صـوت البيانـو الـذي كان يعـزف عليـه تيـام.. إلـى تيـام نفسـه.. مجـرد خيـال.. ولكنـه خيـال حلـو.. أحلـى مـن السـكر علـى قلبهـا.. فـردت علـى تيـام.. وكأنهـا تـرد علـى نفسـها هـي لا عليـه:

«آه يـا تيـام.. لـو دخلـت إلـي روحـي ورأيـت كـم الأوراق المتسـاقطة في بسـتان قلبـي، لذهلـت كـم خريفًـا مـر وأنـا واقفـة كالأشـجار.. وأعـود وأزهـر مـن جديـد مـن أجـل ابنتـي.. فدائمًـا كانـت أخبـث الأحـزان هـي تلـك التـي تخجـل أن تحكـي عنهـا للآخريـن!.....»

فقال تيام متأثرًا بكلماتها الشجية:

«ولكنـي لسـت الآخريـن.. احكـي لـي مـا تشـائين.. سـتجديني مـن خيـر المنصتـين.....»

رغـم الثلـوج مـن حولهـا.. كانـت أوصالهـا دافئـة.. ربمـا مـن نظـرات تيـام لهـا التـي تحمـل نفـس الحنـان.. الـذي كان دائمًـا يتدفـق مـن نظراتـه وكلماتـه.. كان أقـرب للملائكـة في كل تصرفاتـه.. كل

شيء به مريح للنفس والقلب.. لا تشعر معه أبدًا إنك غريب عنه حتى لو كنت قد قابلته للمرة الأولى في حياتك.. من يعرفه يحبه ومن يسمع عنه يحبه ومن يتحدث معه فقد فاز فوزًا عظيمًا.. شخصية مثقفة هادئة وقورة بغير ملل متواضع للبسطاء.. ولذا اختارته السماء سريعًا ليلحق بالصالحين!

تعجبت عندما ضمها تيام إليه وعناقها طويلاً.. حتى في الخيال هي خائفة من الذنب.. من الخطأ.. وهمت بأبعاد تيام عنها ففوجدته يحكِّم عليها العناق أكثر.. ويحتجزها عنوة بين ذراعيه.. فحاولت دفعه عنها بكل قوتها.. لتسمع صوت فارس يعود من جديد بضحكة متوحشة:

«عناقك ناعم كعناق قطة بيضاء.. كفي عن المقاومة.. أنا رجل أحلامك ياصغيرة.. كنت رائعة منذ لحظات.. ماذا دهاك؟!.. أنا رجل خبير بالنساء ابقي معي واحصلي على سعادة صافية بلا لحظة تعاسة واحدة.. فقط أحبيني.....»

أخيرًا انتزعت نفسها من بين أحضانه.. وعادت رائحته المقززة تعود لأنفها لتشوه جمال اللحظات التي قضتها مع تيام أو مع فارس عندما اتخذ هيئة تيام.. ولم تفزع كثيرًا فهي تعرف من البداية أن كل هذا هذيان صنعه فارس في عقلها المحموم.. ولكنها شعرت بيتم ووحشة، بعد غياب صورة تيام..

رغم علمها باستحالة استمرار وجودها مع تيام سواء واقع أو حتى في الخيال.

لم يمهلها فارس حتى لالتقاط أنفاسها.. ونقلها لمكان آخر.. ففي لمحة عين.. وجدت نفسها في صحراء واسعة مفقرة.. لا ماء فيها ولا نبات.. حتى الليل الذي حولها تبدل نهارًا.. كانت الشمس ساطعة وسط السماء.. كشمس يوم صيفي حار للغاية.. مع أن الوقت في الحقيقة ليلاً وشتاءً.. لقد قلب فارس ليلها نهار ونهارها ليل.. يفعل ما بوسعه لدفعها للجنون انتقامًا منها على اقتحام بيته الملعون بأرواح العديد من الاشباح.. ليته يعلم أن يارا هي الوحيدة من كل ساكنى البيت التي يمكنها تقبل وجوده في البيت.. إذا توقف عن إيذائها والعبث بأفكارها ومخيلتها وجعلها ترى وتسمع ما لا وجود له!

على مدد البصر من حولها فراغ.. لا شيئًا سوى رمال.. وصحراء ممتدة إلى ما لا نهاية حسب ظنها.. وشعرت بعطش قاتل من كثرة ما مشت على أمل الوصول لشيء. أي شيء يحدد ملامح الكابوس الجديد الذي تعيشه.. حتى فارس اختفى.. أو هكذا ظنت.. ولكنه كان يراقبها كالعادة من ركن خفي.. يلهو بها أو يلهو معها.. يفقدها عقلها بطريقته.. وعندما تملكها اليأس قررت الجلوس مكانها أرضًا.. فلا مكان تذهب إليه

كلها صحراء وكلها متشابة.. العطش كان إحساس قاسي لأبعد حد.. فقلة الماء في الجسم تضعف من نشاط خلايا الدماغ.. وبدأت ترسم على الأرض الرملية.. كانت تسلى نفسها ربما يصل لفارس شعور باليأس منها.. فهي لم تعد تملك رفاهية الانهيار والبكاء والعويل كلما أرسلها فارس لجحيم من صنعه.. لقد باتت دموعها جافة تذرفها بلا قطرات تتساقط من عينيها.. فمنذ اختفاء ابنها وقلبها يبكي بكاء جاف خفي مؤلم حد التخدير.. فعند درجة معينة من الألم نفقد الإحساس لأن الألم يكون فوق قدرتنا على التحمل أو الاستمرار وهذا ما حدث معها.. هي الآن مستلمة.. أو تريد أن تبدو لفارس هكذا.. ربما يمل منها ويترك لحالها ولضياع ابنها.

لشدة عطشها رسمت بإصبعها على الرمل كوب ماء.. ورسمت بجانبه قطع ثلج.. ثم رسمت وجه لطفل.. ملامحه تشبه ملامح ابنها.. هي كانت في فترة ما من حياتها تجيد الرسم ومدرس الرسم وهي صغيرة كان يتوقع لها مستقبل مشرق لو نمت موهبتها.. ولكنها تزوجت وانتهى كل شيء فماتت موهبتها مع عدة أحلام أخرى كحلمها بالسفر.. بالدراسات العليا.. بالعمل بوظيفة تحبها وتحقق لها طموحها.. من شدة عطشها كادت تجرح يدها وتشرب بعض من دمائها.. إنها فكرة

مختلة.. ولكن العطش فعل بها هذا وأكثر قليلاً.. ولم تصدق عينيها عندما وجدت كوب الماء الذي رسمت يتحول لكوب ماء حقيقى مثلج وشهي وموضوع أمامها أرضًا.. فرفعته بكلتا يداها فورًا إلى فمها الجاف فرحة بالارتواء أخيرًا.. شربت كثيرًا وكلما شربت وجدت أن الكوب لم ينقص منه شيء.. ومع ذلك وصلت لنشوة الشرب بعد عطش شديد.. وكان الماء رائع الطعام لدرجة جعلتها تشرب أكثر من حاجتها وفجأة اختنقت وعجزت عن التنفس.. لدرجة أنها ظنت أنه الموت.. لم يكن بالماء شيء ولكنها لسبب غامض للحظات عجزت عن التنفس وكأن شيئًا ما سد مجرى دخول الهواء لجسمها.. الموت إحساس ليس بالهين.. نحن نتمنى الموت لأننا لم نجربه ولكن الموت شيء قاسي.. قاسي كالموت.. فلا شيء يصف الموت سوى الموت.. إنه عذاب وألم يصل بك لنهايتك !

ووجدت قلبها يردد «لا إله إلا الله.. محمد رسول الله».. وكانت تلك الكلمات حقًا شافية فعادت لها الحياة وأصبحت قادرة على التنفس مرة أخرى.. وتعجبت.. هي غالية عند الله لينجدها بسرعة هكذا بمجرد ترديد قلبها المتخبط لأسمه.. «إلهي العزيز.. أحبك».. همست بصوتها الجواني مرة أخرى...

وقفت على قدميها عندما لمحت من بعيد بيت.. فاقتربت منه في عجل لتصل له.. ربما تجد به مأوى لها حتى يقرر فارس الإفراج عنها وتركها تعود لحياتها وينتهي كابوس اليقظة المحبوسة به الآن.. ولكن فارس قرر العبث معها مرة أخرى.. فأظهر لها ابنها في صورة طيف يجرى أمام البيت الذي تقصده.. وطبعًا هذا جعلها تسرع أكثر لتصل للبيت.. ثم ظهر أمامها من حيث لا تدري الكثير من البشر.. ولكنهم ليسوا حقًا بشر عندما دققت النظر بهم.. إنهم أقرب لجثث مشوهة وتسير على قدميها.. فمنهم من قلعت له عين.. ومنهم من قطعت رأسه ويسير ممسكًا بها وآخر مصاب بطلق ناري في وسط صدره وتم اقتلاع قلبه.. وأحدهم بطنه مفتوح وأحشائه متلية بصورة مقززة وهناك من قطعت يده وآخر مقطوعة قدمه ولازالت جروحه دامية.. الجميع كان مشوه ومع ذلك كان يسير على قدميه.. إنهم أحياء أموات...

ووجدت نفسها تصفق وتنادي على فارس وهي تقول له ساخرة:

«أين أنت يا فارس؟.. فرغم موتك منذ مائة عام إلا أنك ياصديقي متابع جيد لأفلام الرعب الأجنبية رديئة الانتاج.. اجعلهم يختفوا وأعدني لبيتي.. لعبتك معي صارت في منتهى السخف.. أعدني لبيتي....»

أخيرًا أظهر لها فارس نفسه قائلاً بصوت غاضب:

«إياك أن تقولي مرة أخرى بيتك !.. هو بيتي أنا وسيظل بيتي للابد.. هل فهمتى ياصديقتي المخبولة ؟!.. والآن هذا وقت العرض.. خذي.....»

ووضع في يدها اليمنة مسدس حديث الصنع وفي يدها اليسرى مثله.. وابتسم بخبث قائلاً لها:

«إن لم تبدئي بإطلاق النار على هؤلاء الأحياء الأموات.. ستكوني غداء لطيف جدًا لهم.. هيا انطلقي وطارديهم واقتليهم جميعًا حتى نغادر من هنا.. هيا ماذا تنتظري؟!.....»

●●●

والعهدة على الراوي

كل يوم أولد بشخصية أخرى، لكنها تحمل ذكريات ومشاعر وقناعات الشخصية السابقة.. فتقوم حروب طاحنة بيني وبين الشخصية الجديدة.. ويبحث كل منا عن الانتصار، أنا أريد إرساء الذكريات وترسيخ القناعات، والأخرى تريد التخلص منها والبدء من جديد.. فأنا أبحث عن أي شيء جديد لعل به أمر سعيد ينقذني من نفسي القديمة بالية الفكر، ولكن لا أحد ينتصر، وتبقى الحرب حتى أخلد للنوم وفي الصباح أعود لمعاركي الضارية مع «أنا» الجديدة !

وجدت يارا نفسها وسط ساحة واسعة.. والنهار تحول مرة أخرى لليل.. وهناك أطلال لمنازل قديمة حولها.. منازل لها جميعًا نفس اللون الأزرق الباهت.. وهي وسط كل هذا تشعر أنها ليست هي.. إنها أقوى أشرس.. شيء بها لم يعد كما كان.. حتى ملابسها عندما تأملتها أكتشفت أنها ترتدى بنطلون «جينز».. وصدرية لا تستر الكثير من جمالها وفوقهما جاكت قصير مفتوح الصدر.. إنها تشبه إحدى فتايات العصابات في الأفلام الأجنبية.. كان هناك مرآة على أحد الابواب.. وقفت لحظة تتأمل نفسها فوجدت شعرها القصير الأسود الموج تحول لونه هو الآخر، للون الأصفر.. ليستحيل ما فوق رأسها

إلى شيء جميل ومثير كأشعة شمس الربيع الحنونة.. كان كل ما بها يقطر قوة وأثارة.. حتى حذائها الخفيف المنزلي حوله فارس لحذاء جلدى عالي الكعبين.. يصدر صوت رنان مع وقع خطواتها.. وهناك شريان حياة نبض فجأة بداخلها.. وكأنها ولدت من جديد بشخصية أقوى وأعنف.. وكأن هناك غابة من النمور والأسود والضباع والذئاب تسكن روحها.. استيقظت في هذه اللحظة.. أنها مختلفة.. متحمسة للقتال ولحربها التي لا تعرف حتى الآن من هو عدوها الذي عليها التخلص منه !

وبدأ الأحياء الأموات يخروجون عليها من كل حدب وصوب.. ومن فتحات غير متوقعة.. وكأنهم جراد منتشر.. خرجوا عليها من كل اتجاه.. حتى من تحت الأرض.. ومن خلف الأبواب القديمة المتهالكة والنوافذ والجدران.. ومع ذلك لم تشعر ولو للحظة بالخوف.. مع إنها تحارب وحدها وهم يظهرون أمامها بالعشرات.. أطلقت عليهم النار في البداية بصورة عشوائية.. ثم بدأت تنتقى وتستمتع بما تفعل.. واكتشفت أنها تطلق عليهم مع الرصاص، ألفاظ نابية.. لم تكن يومًا تنطقها ولو حتى بينها وبين نفسها.. إنها الآن تشتم وتلعن وتسب.. بعلو صوتها وكأنها تحررت من كل شيء وأي شيء طالما قيد لسانها.. أنها تصرخ وتقفز وتتدحرج أرضًا بمنتهى

المهارة والقوة.. وكأن بها قوة ألف رجل.. ولكنها غاضبة.. إنها غاضبة منذ زمن ولا تعلم السبب.. والمرأة عند الغضب أقوى كثيرًا من الرجل.. هكذا قرأت مرة ولم تصدق.. ولكنها صدقت الآن والجثث تتساقط بالعشرات تحت قدميها.. إنها تستمتع حقًا بما تفعل.. رافضة أن تفكر.. أنها تريد أن تقتل المزيد والمزيد من الأغبياء.. أليس الأموات الأحياء يشبهون إلى حد كبير أغبياء البشر العاديين.. يشبهوا من ينجبوا وهم عاجزون عن التربية وتوفير الحياة الكريمة لأولادهم.. يشبهون الفاسدين والمرتشين.. أننا نبحث عن الفاشلين و نرفعهم لأعلى المناصب.. ونقنع أنفسنا بقوتهم وصعوبة إزالتهم.. نحن بارعون في صناعة الطاغية ولو حتى بين مجموعة موظفين ومديرهم في أصغر مؤسسة!!

كانوا في عينها يشبهون من اعتنقوا قشور الأديان ومظاهرها ونسوا الأخلاق والقيم والتراحم والعمل المتقن والدعوة إلى الابتكار والفنون الحقيقية التي تسمو بالإنسانية وتعبر بها ظلمات الحيوانية..

يشبهون الإعلامي الذي يطبل وينافق لنظام فاسد مقابل الحماية والمال.. إنها غاضبة.. لأنها تراهم كأمثال الشعوب الصامتة عن حكومات مستبدة تخير الشعوب بين الظلم أو

الضياع.. إنها شعوب عاجزة.. أنه كوكب عاجز.. لم يعد للخير أو العدل أو الجمال.. مكان به.. ولا دولة على سطح كوكب الأرض الآن تتمتع بعدل كامل.. حتى دول العالم الأول.. كما أطلقت بعض الدول على نفسها.. نظرًا لتفوقها التكنولوجي أو الصناعي أو الزراعي أو شيء من هذا القبيل.. ولكن الإنسان.. أين الإنسان من كل هذا.. علاقته بالسماء تحتضر في ظل صراعاته المادية.. أنه طفل مدلل كلما فشل في خلق جنته على الأرض نسب فشله الذريع لجحود السماء عليه.. فتجد الملحدين بلا عدد اليوم.. مسكين أيها الإنسان متى تنضج ؟!.. متى تكتشف مهمتك الحقيقية وتخلق جنتك لنفسك وبنفسك.. أولاً على الأرض.. لتستحق جنة السماء الخالدة؟!

لا أدري كم مضى من الوقت وأنا أقتل.. وأنا التي لطالما كنت أهادن الحياة وأبادلها التحية من بعيد خشية منها.. أتصنع سلامًا زائفا معها عساها تغض النظر عني وتنساني وأشهد أني بعد هذا العمر حاذيت الحياة ولم ألمسها.. وجدت نفسي الآن في حال غير الحال.. حتى لو كان حالي مجرد أوهام في خيالي أو خيال أبليس الذي عرف كيف يخرج أسوأ ما في.. ولكن ليس كل ما صدر مني سيء فربما به جمال مستتر لمْ ألحظه حتى الآن.. أني بتلك القوة ولدى قدرات كنت أجهل

وجودها بى.. ولكن فجأة توقف كل شيء حولها وسمعت صوت «فارس».. يصرخ بها بنبرة حماسية وبمن تقتلهم:

«cut.. excellent shot» .....

ووجدت الأنوار تضاء.. وهناك عاصفة تصفيق تستقبلها أذنيها.. وفارس يجلس على كرسي وكأنه كرسي مخرج.. وهناك العديد من كاميرات التصوير السنيمائي.. وغرباء لا تعرفهم وبلا ملامح محددة في عينها حوله.. يتهامسوا فيما بينهم كما يفعل العاملون بالسينما أثناء عملهم.. وفجأة قام فارس من على كرسيه وتوجه إليها وهي مبهوتة مما يحدث.. واحتضنها تمام كما يفعل المخرج مع ممثلة أدت دورها ببراعة.. وقال لها.. وهي أسيرة ذراعيه المحيطة بخصرها:

«طالما أنك بتلك الشجاعة فلك عندي جائزة.. أنها رحلة.. تعالى معي في جولة صغيرة بين «آكلي لحوم البشر» في العصر الفاطمي بسبب مجاعة تعرضت لها البلاد في عهد المستنصر، وسميت المجاعة وقتها بـ«الشدة المستنصرية» وهي مصطلح يطلق على مجاعة حدثت بمصر نتيجة غياب مياة النيل لسبع سنين.. ونتيجة الصراعات التي كانت بين الأمراء وتولى الجهلة والأغبياء أعلى درجات الحكم فقد أكل الناس بعضهم بعضًا، وأكلوا الدواب والكلاب والقطط وكانوا يتربصون بالنساء في الطرقات ويخطفوهن ويقتلوهن ويأكلوا لحومهن.....»

كانت مذهولة.. عاجزة قليلاً عن استرداد قدرتها على استيعاب كلمات فارس التي يشرح بها في عجالة كابوس يارا الجديد الذي سيقذفها به عنوة كما عودها.. ومع أنه لاحظ ذلك عليها تابع بحماس شيطاني وقبضة حديدية حولها:

«ليتني عشت هذا العصر.. لطالما تخيلت كم هو شهي طعم لحم النساء خاصة الجميلات مثلك ياصديقتي اللدودة.. رائعة أنت كحبة كرز زاد نضوجها.. ليس بك عيب سوى عنادك.. ليتك تموتي وتتتحولى لشبح مثلى لألهو معك للأبد في فردوسنا الصغير.. بيتي.. ولكن طالما أنك مازلت على قيد الحياة فلا مكان لك فيه.....»

الرق النفسي.. لطالما كان أبشع وأحط أنواع الرق.. أنْ يستحوذ على عقلك ما يقوده للركود والجمود سواء كان فكرة خاطئة أو إنسان خضعت له معنويا أو فكريًّا.. لظنك أنه أفضل أو أقوى أو يملك أي شيء لا تملكه في كيانك وشخصيتك.. فتكتفي به كعقل خارج جسمك يفكر لك ويرسم طريقك على هواه وحسب معتقداته ونزاعاته أيًّا كانت.. أنه لا يعلمك جديد.. فلم يعد لديك عقل أصلاً لأنه أصبح عقلك ومتخذ قرارك.. إنه سيدك النفسي الذي تبعه لمجاهل أي شيء هو يريده ولم تعد لديك إرادة !

وقد يكون هذا السيد النفسي هو زوج أو أخ أو أب أو أم أو حتى صاحب.. تسلم لهم حياتك ويستكين عقلك منتظرًا قرارتهم في حياتك.. قرارتهم التي قد تصيب أو تهدم حياتك أنت.. مع أن القرار قرارهم ولكن المتضرر الوحيد سيكون أنت.. ووقتها لن ينفعك الندم ولن يلقى اللوم سوى عليك.. لأنها فقط حياتك وأنت الذي نفذت ما قرروا لك بالنيابة عنك.. ولكنها وبرغم الكوابيس الجنونية التي يقذفها فارس بها حرة الإرادة.. أنها منذ زمن لم تكن حرة الإرادة...

كل شيء تغير حولها بلحظة.. هي الآن بجانب الأهرامات الثلاث بالجيزة.. والشمس تكاد تغرب.. والهدوء مسيطر على كل ما حولها.. وفارس في مشهد عجيب.. أقرب لأداء ممثل مسرحي هزلي جاثي على ركبتيه في خشوع وتضرع للسماء يصلي قائلاً:

«يا ربَّ جميع الكائنات والعوالم والأزمان

أنت لم تمنحنا قلبًا كي يبغض بعضنا بعضًا

ولا أيادٍ كي يذبح بعضنا بعضًا

اجعلنا نتآزر لنتحمل عبء الحياة الصعبة والعابرة

ولا تسمح بأن تغدو الفوارق الطفيفة بين الملابس التي تغطي أجسادنا الواهية.. أو بين عاداتنا السخيفة.. أو بين قوانيننا التي تشكو ألف علة وعلة.. أو بين آرائنا المغلوطة.. لا تسمح بأن تغدو كل هذه الفوارق الطفيفة التي هي من سمات تلك الذرات المسماة بشرًا علامات حقد واضطهاد..

ثم همس منهيًّا صلاواته:

« حبذا لو تذكر البشر قاطبة أنهم إخوة.. آمين»

ثم نظر إلى يارا الواقفة خلفة مذهولة منتظرًا منها أن ترد خلفه:

«آمين».. ففعلت وهي تكاد تفقد عقلها من فارس ومُجونه!

قام مسرعًا من على الأرض.. وهو يهش عن وجهه ذبابة كبيرة نسبيًّا.. وقال لها من بين ابتسامة شيطانية واسعة:

«نحن الآن ما بين عام ١٠٦٤ وعام ١٠٧١ ميلاديًّا.. وأهل مصر الآن يأكلوا أي شيء وكل شيء.. حتى البشر ياجميلتى.. سأتركك الآن لمحنتك الجديدة.. كوني بخير من أجلي.. فأنت أكثر شيء مسلي قابلته خلال المائة عام الآخيرة....»

ثم لم تجد أحد أمامها.. اختفى فارس.. وظهر محله حصان يبدو عليه الوداعة.. جلس بجانبها.. فوجدت نفسها تمتطيه بصورة تلقائية.. أنها متعبة.. جسديًّا ونفسيًّا.. لقد حل بها التعب أخيرًا وأدركت أنها لم تأكل منذ زمن.. لقد فقدت الزمن بفضل الهلاوس التي ينقلها لها فارس.. وتذكرت ابنتها.. ترى ماذا فعلت وحدها.. ومن أطعمها.. يجب أن تحافظ على حياتها وتوازنها النفسي فقط من أجل صغيرتها.. «مي».. إنها كل ما لها..

العباءة البيضاء المطرزة بالخيوط الذهبية والفضية التي وجدت نفسها ترتديها كانت واسعة ومريحة بعكس ملابسها السابقة ومكنتها من الحركة بسهولة والجلوس هانئة فوق الحصان الأبيض الذي امتطته.. إنها المرة الأولى التي تمتطى فيها حصان.. أنه شعور بهي تمكن منها افرح قلبها قليلاً.. وفوق رأسها طرحة ذهبية لها إطار أبيض.. مربوط جزء منها خلف رأسها والباقى يتدلى على كتفيها.. وزينت قدميها بصندل يحمل أحجار ملونة وله أربطة طويلة التفت حول ساقيها الناعمة في إناقة امرأة تحكم الغجر أو شيء مثل هذا.. شيء همجي متوحش لكن يقطر جمال وقوة ويأخذ العيون والألباب...

أخذها الحصان ومشى بها بعيدًا عن الأهرامات.. وعندما هبت عاصفة تحمل معها أتربة ورمال.. وجدت نفسها تلقائيًّا تحمي أنفها ووجها بجذب جزء من الطرحة التي تتدلى على كتفيها وتصنع منها قناع نصفي لوجهها يحميها من استنشاق الأتربة والرمال.. لم تكن تعرف كيف تقود حصان ولا كيف تطلب منه أن يسرع.. ولم تكن تعلم أصلا إلى أين يمكنها الذهاب ؟!.. حقًا هي لم تعد خائفة رغم تحذيرات فارس بأنها في زمن الناس فيه تأكل بعضها البعض.. ولكنها متعبة.. تريد العودة لبنتها وضمها وانتهاء كوابيسها للأبد!

أخيرًا وقف حصانها فوجدت نفسها بجانب نهر النيل.. ولكنه لم يكن كما تعودته.. كان منسوب الماء به منخفض كثيرًا ويطفو فوق سطحه أشياء غريبة ومخيفة.. كنفيات حيوانات نافقة.. وهياكل عظمية بشرية وأشجار جفت ووقعت به.. كان منظره بشع ولا يبشر بخير.. فانقبض قلبها.. كانت تتمنى أن تشرب ولكن الماء كان سيء الرائحة وغامق اللون.. فنزلت عن حصانها.. ومشت قليلاً في اتجاه البيوت القصيرة المتراصة أمامها في حذر.. ولما جنى عليها الليل.. قررت النوم ولو لساعة في أي بيت مهجور تجده.. أكيد هناك العديد من البيوت المهجورة التي مات أصحابها بسبب المجاعة كما قال لها فارس...

تلصصت على أهل المدينة لتتجنب مقابلة أحدهما.. فهي لا تضمن إلى أي مدى وصلت وحشية الناس.. حتى وجدت بيت واسع بابه مفتوح.. فدخلت دون تفكير كثير.. بعد أن وجدت لوحة معلقة وسط صالة البيت مكتوب عليها اية قرءانية تقول:

«إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»

فأطمئن قلبها ودخلت !!.. وجدت في أول حجرة في البيت خمس أولاد تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة والخامسة عشر ولكنهم كانوا في غاية الضعف والهزال.. وكأنهم جلابيب فارغة من المحتوى.. ينامون الخمس على الأرض فوق فراش واحد.. مستغرقين في نوم.. أقرب لنوم الموتى.. لم يشعروا بها وهي تقف بينهم وتتأمل وجوهم التي هي أقرب لجماجم عارية من اللحم من شدة النحول والضعف.. فقط أنفاسهم هي التي تعلوا وتهبط أعلمتها أنه لازال بهم رمق أخير.. أنهم يحتضرون جوعًا.. همست لنفسها وعينها قد غامت بالدمع الحزين...

وفي الحجرة الثانية وجدت رجل متوسط العمر وامرأة رائعة الجمال تبكي وتلطم خديها والرجل طارة يواسيها وطارة يبكي معها ودار بينهما الحديث الآتى:

– لقد مات ثلاث من أولادنا الثمان من الجوع.. يجب أن يضحي أي منا بحياته ليعيش أولادنا.. لقد غادر معظم الحكام البلاد وتركوا الشعب لمصيره الأسود مع الجوع.. فمنهم من مات ومنهم من فر خارج البلاد كالفئران.. اذبحني.. وأطعم أولادي لحمي...

فرد الزوج على الزوجة:

– أنت جاريتى وأم أولادي وحبيبتي.. فكيف أقتلك؟!.. لدى حل أفضل ساعدني في قطع جزء من جسدي لنطعم الأولاد ونعد لهم حساء ربما يذهب عنهم الهزال ويبقوا لنا..

فبكت المرأة بكاء حار وهمست:

– لا حياة لي بعدك.. وأنا أخاف عليك أن لا تتحمل مشقة ما تطلب.. أنت سيدي والأولاد معك أفضل حالاً.. ما أنا إلا جارية.. كان يومًا لديك العشرات مني.. اقتلني واطعم الأولاد.. فلن يشد أوصالهم ويعيدهم للحياة سوى الحساء واللحم..

فرد الزوج:

– ولماذا تضحى أنت.. سأجلب لك الآن السكين واذبحيني.. واطعمينى للولاد وكلي معهم وتذكري دومًا إنى لم أحب امراة كما أحببتك.. وقلبي لم يفرح إلا في حضرتك وبالي لم يهدأ

إلا بين أحضانك.. ضميني يا «فرط الرمان».. ضميني واعلمي أن ذبحك لي ليس بهذا السوء الذي تظنيه.. فيكفي أن أموت بيديك وبين يديك ياحبيبة القلب..

لم تنتبه «يارا» المنصتة للحديث المؤلم إلا بعد أن خبطها الابن الأكبر على رأسها بعصى قاسية.. جعلتها تترنح قليلاً في مكانها ثم تهوى على الأرض عاجزة عن الوقوف.. فما كان من الزوجان العاشقان المضحيان إلا الاحتفال بها كصيد سهل.. عثرًا عليه داخل بيتهما ويمكن ذبحه واكلة وانقاذ أولادهم الجوعة...

في صالة البيت تم تقيدها إلى كرسي خشبي وربط فمها وقدميها حتى عجزت تمامًا عن الفكاك.. وخرج الأولاد من حجرتهم يتأملونها كما يتأمل المرء الجائع فرخة محمرة تجلس فوق أرز بالخلطة وتحفها البطاطس الذهبية اللون.. هي كانت في نظرهم ألذ وأطعم.. كانوا ينظرون لها ويلعقون شفاهم الجافة من قلة الطعام والشراب.. سبعة أشخاص يطفون حولها ويرون فيها وجبة شهية لهم وهي مقيدة لا حول لها ولا هرب !

هل هذه هي نهايتها.. الموت ذبحًا في زمن غير زمانها.. وعلى أيدي جوعة حمقى.. هل الجوع مبرر لنأكل بعضنا بعضا؟!.. هل حياة أولادنا وحبنا لهم مبرر للقتل؟!.. وماذا بعد أن يأكلوها الآن يجوع الأولاد مرة أخرى ؟!.. فقط لو يحرروا فمها لتتكلم ولكنهم قيدوا كل شيء فيها.. حتى لسانها!..

في ركن شديد جلست الزوجة تشحذ السكين.. والفرحة العارمة تبدو عليها وكأنها أنتصرت في ألف حرب.. أما الزوج فخرج قليلاً من البيت وعاد يحمل عصبة من الحطب الذي يبدو عليه سرعة الاشتعال من شدة جفافه.. كل هذا كانت فقط مجرد تحضيرات بسيطة لذبحها وطهوها.. كانوا يمارسون هذا بأريحية تامة وكأنه شيء معتاد.. وجلس بجانبها أصغر الأولاد.. تأملها قليلاً ثم قال لها:

- أنت أجمل كثيرًا من جارتنا «زينب».. أنها آخر لحم تذوقناه.. لقد كانت بدينة وعجوز.. لحمها كان صعب المضغ.. اعتذر لك عن اكلنا لك ولكن نحن جوعة.. وأشكرك لأنك أنقذت أمى لقد خشيت أن يذبحها أبي ليطعمنا حتى لا نموت كما حدث لثلاث من أخوتي..

وابتسم الطفل.. آكل لحوم البشر.. ابتسامة أرعبتها حقًا.. فوجدت أسنان الطفل صفراء وله أنياب ظاهرة ومخيفة.. وتخيلته وهو يمضغ لحمها الطري ويتلذذ وانتفض قلبها!

خطر فارس على بالها.. فوجدته فورًا يقف على رأسها يضحك.. بمجرد التفكير به.. ضحكته المتهكمة الساخرة من غبائها الذي أدخلها بيت تسكنه أسرة من آكلي لحوم البشر لمجرد رؤيتها لاية قرءانية في صالة بيتهم.. وهمس لها شامتًا:

- لقد خدعتي ياجميلتي.. أنا أحسدهم لأنهم سيتذوقوا لحمك ياشهية.. يالحظهم الناري !

نظر لها مليًّا ثم شعر بحاجتها للكلام.. فحرر فمها.. ووجدت حينها الأب والأم وأولادهم قد تجمدوا فجأة مكانهم بلا حراك.. كلا على وضعه الذي كان عليه:

- فارس أرجوك.. أتوسل إليك أخرجني من هنا.. ابنتي وحدها.. ألم تعرف يومًا احساس الأبوة.. أم يكن لك ابن أو ابنة؟!

تغير وجه فارس وهذا نادر.. فهو شيطان عديم المشاعر.. لا يعرف الشفقة.. ولكنه هذا المرة تذكر.. تذكر طفلته الوحيدة من ناهد زوجته التي خانها وماتت بسببه على يد عشيقته اليهودية.. ووجدت فارس يصرخ فيها وهو يضع اصبعه بعصبية على فمها ليمنعها من المزيد من الحديث عن ماضيه:

- اخرسي.. أنا أحيا وحيدًا منذ زمن مع عازف طبول عظيم في رأسي.. لا تذكرني بشيء ولا تنبشي ذكرياتي السوداء.. نعم كانت لي ابنة ولكني لا أعرف أين ذهبت؟.. أن تحدثتي مرة اخرى في هذا الموضوع ستكون نهايتك.. هل فهمت يا بلهاء؟

هـزت رأسـها علامـة الموافقـة دون كلمـة.. هـي ليسـت في موقف يسمح لها بأن تثير غضبه.. إنه مخرجها الوحيد فيما يبدو من أزمتها...

انتشى بمجرد ظهور علامات الرعب على ملامح وجهها وعاد لهدوئه الشيطاني مرة أخرى.. فقالت مترددة:

- أرجوك اخرجني من هنا.. أتوسل إليك

فنظر لها ممثلاً تأثره لحالها وتوسلها وقال:

- الجميلة تأمر وفارس يلبي.. ولكن لكي نغادر أنا وأنت هذا المكان المرعب.. هناك طقوس عليك ممارستها.. سأخرج منك شر لم تكوني تتوقعي أنك تملكيه.. الليلة القمر مكتمل.. ولو لاحظتي لونه وردي بعض الشيء.. يجب أن يكون هناك دم مسفوك لتكون لدى القوة لنخرج من هنا!

ردت: «ماذا تقصد؟!.....»

فأجابها:

«أنت لا تريدين الموت فيما يبدو.. إذن لنقتل تلك الأسرة اللطيفة آكلة لحوم البشر.. لن نغادر إلا بتلك الطريقة.....»

«هل تريد قتلهم يافارس.. ماذا فعلوا لك ؟!.....»

«أنا شبح مسن طيب لا أقتل أحدًا.. أنت من يجب عليه قتلهم.. كانوا سيذبحونك منذ قليل.. المطلوب منك بسيط جدًا.. سأقيدهم لك وأذبحيهم كما كانوا ينوون ذبحبك.. لن تتعبي في شيء.. فقط دعي السكين تمر على رقابهم وتقطع شرايينهم الغليظة.. هذا عادل كفاية.. ويعتبر دفاع عن النفس.....»

واكتشفت صدفةً.. أني كنت دومًا اليد التي يعضها أحبائي عندما يصيبهم الأذى.. تمامًا كالطفل الذي يأخذ حقنة فلا يجد إلا يد أمه ليعضها وينقل لها ألمه.. وملأني هذا بالغضب والثورة.. وتسآلت لماذا حينما تنكسر القلوب لا تتوقف أي مدينة ولو لثانية احترامًا لكارثية الأمر.. واكتشفت أني عاجزة حتى عن الموت.. فيجب أن لأعود لإبنتي.. فلن يبتلعك الموت حتى يرضى عنك ويا لصعوبة إرضائه.. وطافت برأسي كلمة القتل.. إنها كلمة قوية.. ليس هناك مشكلة لو سمحت لنفسي بذبح تلك الأسرة.. إنهم يعيشون في زمن غير زمني.. أنهم ماضي مؤلم.. وربما أنا أهلوس وربما أحلم.. فهل نحاسب لو ارتكبنا جرائم دموية في الحلم؟!

لم يكن الطريق مُظلمًا، كُنت أنا المُظلمة.. كنت أنا الراضية المستكينة دومًا.. وشعرت بحاجتي لأن أشكر فارس

لأنه عرفني على الوحش بداخلي.. على الجبروت الذي يعيش بي.. إن الأشخاص الذين لا توفر لهم الأرض أي شيء، تم اختراع السماء لهم [...] المجد لهذا الاختراع!

المجد للدين الذي سكب للبشرية المتألمة، في الكوب شديد المرارة قطرات عذبة ومنوّمة.. إنه المخدّر الأخلاقي.. وقطرات من الحب والأمل والإيمان والوعد بحياة خالدة من النعيم!

ومر بخاطرها بيت شعر يحكي ما تعاني أو ما يعاني أغلب البشر:

«وكل لحظة يتقاتلُ الضِدّان بين أضلاعِي.. عزمُ اليقينِ وحيرةُ المُرتابِ !»

هل تلك أفكارها أم أفكار فارس.. أنه الآن يتلاعب بها.. هي لم تعد تستطيع التميز.. وكأنه سكن رأسها ويفكر عنها.. هل توحدت معه.. إن آخر ما تذكره.. سكين في يدها.. والأب والأم وأولادهم الخمس مقيدين كلا في عمود معدني.. وهي وسطهم في رداء أسود طويل تحصد أرواحهم.. غير ملتفتة لعيونهم الباكية المتوسلة الطالبة للرحمة.. وحولها شموع سوداء كئيبة في كل مكان.. وعندما انتهت طلب منها فارس نزع أكبادهم.. ففعلت وكأنها مخلوق آلي.. لا يشعر.. وجمعت

ما نزعت في صحن نحاسي كبير.. فأخذ فارس منها الصحن ووضعه على نفس المقود الذي أعده الأب منذ قليل لطهو لحمها بعد أن يقوم بذبحها.. ولكنها هي الآن التي أطاحت برقبة الأسرة.. وبدأ فارس يطهو أكبادهم.. كانت ترتجف من هول المشهد حولها.. سبعة جثث وفارس يطهو أكبادهم.. كان مخطط فارس أن يفقدها عقلها والآن أظن أنه قد حدث!

آمرها لنهاية الماسأة بأن تأكل جزء من أكبادهم حتى يعود بها أخيرًا للبيت.. فنفذت!

●●●

حضرات السادة الاشباح

هل انتهى الكابوس ؟!.. هي لاتدري.. فقط هي محمولة بطريقة ما.. كائن ما يحملها.. ويسير بها قليلاً ثم يصعد بها عدة سلالم.. ثم يضعها في سرير.. خمنت أنه سريرها.. حاولت فتح عينيها لتفقد وجه من يحملها ولكنها متعبة.. في حالة ارتباك.. كل شيء بها مبعثر.. وضائع وسط صخب ما عانت ورأت وتحملت.. إنها تعاني جرعة زائدة من التعذيب النفسي والقهر.. وطاف بخيالها وجه «مازن» ولدها المفقود.. أين هو ؟!.. لماذا هو دائمًا في حالة نوم منذ جاءت إلى هذا البيت ؟!.. ولكن خانتها ذاكرتها وأحضرت لها اسوأ لحظات حياتها على الإطلاق.. لحظة دفنها لابنها بعد موته.. بعد أن قتلته قطعة الحشيش التي أكلها من فوق المنضدة الملعونة التي كان زوجها يرص عليها مخلفات مزاجه اللعين الذي لا يعتدل إلا بالمخدرات...

كان كل شيء بها يبكي إلا عينيها.. لقد جفت كنهر خرب.. قلبها ينشق ويخرج منه الوجع ككيان مخيف يقبض على أنفاسها ويكاد يمنع عنها الحياة.. وهي نائمة مكانها عاجزة تمامًا عن الحراك والتعبير...

هـذا الكائـن الـذي كان يحملهـا أحضـرَ منشـفة مبللـة ومسـح الدمـاء الغامقـة اللـون التـي كانـت تلطـخ فمهـا وحولـه.. ولاحـظ «ضيـاء» الـذي كان يحـاول إسـعافها بعـد أن حملهـا لسـريرها.. أن هنـاك شـيء بشـع الرائحـة محشـور في فمهـا الصغيـر عنـوة.. أنـه جـزء مـن كبـد إنسـان !!.. كمـا اكتشـف بعدهـا.. فمـد يـده وأخرجـه مـن فمهـا.. فوجدهـا تنقلـب علـى جانبهـا الأيمـن وتفـرغ كل مـا في معدتهـا حتـى كادت تخـرج أمعائهـا نفسـها مـن فمهـا!!

وعندمـا عجـزت كل خليـة في جسـدها عـن الصراخ أو صنع رد فعـل يصـور مـا يسـكنها مـن عـذاب وجـدت قلبهـا يناجـى ربـه مـن مكانهـا.. حيـث كونهـا ممـدة علـى سـريرها عاجـزة عـن الحـراك:

«ربـي لقـد بذلـت مـا بوسـعي لئـلاّ انطفـئ ويمـوت بـى الإنسـان، خـذ بيـدي إلـى نـورك وطيـب حنانـك، واغمرنـي بضـوءٍ لا يخفـت وهجـه ولا ينكمـش، يعـزّ علـيّ هـذا التعـب والركـض الطويـل في مـدارٍ أجهلـه، خـذ بيـدي مـن التيـه، مـن عـبء الوجـود الحزيـن، مـن بـين أنيـاب القلـق، إلـى رحابـة قربـك وعفـوك وأمانـك، واملأنـي بالسّـلام الـذي أتـوق إليـه.. اسـكب في قلبـى النـور والرضـا والقدرة علـى الصبـر وهـون عذابـي.. إنـك أنـت السـميع العليـم.. أنـك أنـت الرحمـن الرحيـم.. أنـك أنـت مـن يقـول للشـيء كـن فيكـون»

وتذكرت يارا في تلك اللحظة الكثير مما حجبه عقلها عنها لشهور.. لقد مات ابنها.. بعد ابتلاعه قطعة الحشيش التي تبقت من زوجها بعد لف العديد من السجائر المخدرة وانتشى ظلما وعدوان ونام كقتيل.. فلم يشعر بالصغير وهو يقترب منه ويسرق قطعة المخدر وهو يحسبها حلوة.. ويبتلعها كاملتا.. لتنهي حياته ويحترق قلب أمه عليه.. تذكرت طلاقها.. بعد دخول زوجها السجن.. لقد اعترف على نفسه.. كان يريد أي عقاب ينزل به ليريحه قليلاً من عذاب الضمير.. طلقها زوجها دون حتى أن تطلب.. فقد فشل في تحمل كلمات اللوم منها ونظرات العتاب.. ورغم اعتذاراته الكثيرة لها.. إلا أن اعتذاراته عن قتله ابنهما بإهماله الجسيم.. ضرب من الوقاحة وعدم تقدير لفداحة ما فعله بأقرب المقربين له.. لقد تهاوى في «يارا» كل شيء.. فما فعله بها الحزن لا تحيط به كلمات.. من لطمة إلى صدمة.. عالمها انهارَ في لحظة ابتلاع طفلها المخدر.. إنها متعبة وكان طفلها مات الآن.. مع أنها تعلم أن هذا الفكرة غير صحيحة ولكن ما حمل الإنسان ثقلاً أصعب من فكره.. شعرت بألم قاسي في عمودها الفقري.. لطالما عانت من أوجاع به عند شعورها بالإرهاق أو البرد أو الحزن الشديد وتخيلت حوار بين عظمة من جسدها وأخرى وهي تقول لها:

«رجاءًا.. لا تتكئي علي».. تذكرت يارا تلك التصرفات الغريبة التي كانت تصنعها دون إرادة منها عندما استضافتها أختها في بيتها.. حتى ظنت أختها بها الجنون وتمنت الخلاص منها وسمعت صراحة زوج أختها يطلب من أختها أن تطلب منها مغادرة بيتهما لأنه خائف منها على ابنه وحتى على نفسه.. وتذكرت نسيان الجميع من أهلها ومعارفها السؤال عنها عندما عادت للجلوس في بيتها بصحبة ابنتها وكأنها أصبحتُ واحدة من الأسماك الإستوائية التي لا أحد يتذكر اسمها ولا لونها ولا شكلها، فهناك الملايين مثلها من هذه الأسماك في البحار والمحيطات.. وابتسمت رغم ما بها ونامت...

في صالة البيت اجتمع فارس وناهد وضياء.. وهذا الذي فتح باب حجرة المرايا لهم.. أنه شبح السيد «جيوفاني غرونكي»!

جيوفاني غرونكي.. هذا الايطالي العجوز الذي ولد من أم بريطانية وأب إيطالي.. بعينيه الزرقاء وبشرته الفاتحة وشعره الاشقر.. الذي يمثل نموذج مثالى للعرق الابيض بين البشر.. عاش في مصر كملك.. بين مزارع القطن والعنب التي كان يمتلكها ويعمل بها مئات الفلاحين أشبه بعبيد مناكيد له وهو السيد عليهم.. جمع الثروة واستثمرها حتى وصلت لأبعد من

كل طموحاته يومًا.. وعندما تجاوز السبعون ولم يكن له ولدًا ولا بنت.. رغم زواجه بعد قصة عشق ملتهبة الأحداث من ابنة عمه في شبابه.. ولكنها المسكينة رائعة الجمال.. ماتت دون بلوغ الثلاثين من عمرها أثر سقوطها عن فرس جامح.. فقرر انفاق ماله على التحف والانتيكات.. واحتفظ بجزء بسيط من نشاطه التجاري مع فارس في صناعة الخمور وتجارتها.. من باب التسلية.. فقد مل كل شيء حتى مل جمع المال..

وكان زواجه للمرة الثانية في كبره من امرأة تصغره بخمسة وأربعون عامًا.. صفقة في البداية.. ماله مقابل شبابها وأنوثتها المتفجرة.. فقد كانت كتلة إغراء حية تسير على الأرض.. تحرك به الرجل رغم بلوغه السبعين.. بشعرها الأشقر الذهبي وبشرتها الناعمة كالحيات.. البيضاء كالثلج.. ناعسة العينين بشكل يقطر إثارة ومرواغة.. رموشها طويلة كأنها دمية مكتملة عناصر الفتنة.. ليست بالطويلة ولا بالقصيرة.. بل لها «قد» مياس مرمري يعتبر مثال راقي للأنوثة والدلال الطاغي.. ولكنها جمالها هذا جمال مسموم يعجز القلب عن الارتياح له.. مع أنها دائمًا تمثل البراءة والضعف والاستكانة...

في السرير كانت زوجته الثانية «ريتا» هي سيدة الموقف.. تعلم كيف تقنع الرجل الذي ينام بجوارها إنه أسد مغوار وإنها

في حضرته قطة صغيرة بيضاء لاحول لها ولا قوة.. تعلم ماذا تفعل لترضي رجل.. حتى لو كان في عمر جدها.. وبالكاد لازال قادر على الوقوف على قدميه التي أكل الزمن صحتها وقوتها...

ريتا.. فتاة يهودية من أصول أوروبية.. ولكن هذه الأصول الأوروبية اختلطت في غفوة من الزمان بأصول عربية.. فلها جدات مغربيات وجدات تونسيات.. ولكن والدها تزوج فتاة حسناء يهودية مصرية من الإسكندرية.. واختلطت هنا عروق كثيرة لتنتج «ريتا».. فبعد موت والدها كان عليها أن تعيل أمها وأخويها الصغيرين.. فعملت في مهن كثيرة متواضعة لتحقق دخل يكفي بالكاد مطالب أسرتها المادية.. حتى سقطت في أيدى الكثير من الرجال القساة.. فكان أولهم حبيبها الذي تركها في ملهى ليلي بعد أن خسر في القمار كل ماله، كرهان حتى يعود بمال يسدد به دين القمار ولم يعد النذل وكان عليها أن تواجه صاحب الملهى.. الذي ساومها بين تسليمها للشرطة مقابل دين صديقها أو امتلاكها لليلة !

وسلمته نفسها.. لقد كان الحل الأسهل لديها.. فلم يكن صاحب الملهى بشع أو دميم.. بل رجل في الأربعينيات من عمره.. أسمر.. طويل.. من النوع الذي لن تجد ريتا الكثير

من الغضاضة حتى تعاشره ليلة.. وبعد تلك الليلة تعلق بها بطريقة ما.. فكانت المفضلة لديه رغم صغر سنها.. وعندما عرض عليها العمل في محله كفتاة ليل وافقت مبتهجة بالدخل الكبير الذي سيعود عليها من عرضه هذا.. وتفهمت الأمر عندما سلمها بيده للكثير من الرجال.. ولكنه لحكمة ما كان يرفض أن تكون مع رجل واحد أكثر من ليلة.. كان لا يريد أن تتعلق هي بأحد من زبائنه أو يتعلق قلب أحد الزبائن بها.. وكان يعاملها معاملة خاصة دونًا عن كل بنات الملهى فيسمح لها أن ترفض هذا أو تقبل ذاك.. فلم يكن يفرض عليها شيء سوى نفسه.. فكان هو فقط الشيء الوحيد الذي ليس بامكانها رفضه.. إنها له وقتما شاء وأينما شاء..

كانت حرة مادامت عبدته.. حتى ظهر على طاولة القمار ذات ليلة السيد « جوفاني غرونكي «.. واشتراها من صاحبها ودفع فيها الكثير على امرأة في مثل حالها.. وحررها منه للأبد وتزوجها وجعلها سيدة.. سيدة بكل ما للكلمة من معنى.. فقد منحها سيارة خاصة تجرها الخيول وسائق تحت إمرتها.. ومال وفساتين لا عدد لها وخادمة لها وحدها غير خدم البيت.. حتى خانته مع أقرب صديق له وقتها.. خانته مع «فارس».. ولم يكن ليصدق خيانتها حتى رأى بشاعتها بعينيه فقتلها وقتل فارس وانتحر...

إنه لازال يذكر كل ما حدث في تلك الليلة العصيبة بكل تفاصيلها الدموية المرعبة.. كان مخمور بعض الشيء.. رغم أن الشمس لازالت لم تغرب بعد.. فارتشف كأس آخر بجانب المدفأة إيطالية الطراز التي كانت تتوسط صالة بيته.. الذي كان كل شيء به إيطالي من ديكور وستائر وسجاد وحتى المفروشات والأثاث.. كان أشبه بقطعة من وطنه مخبئة داخل الريف المصري الطيب.. وقرر تسليه نفسه في غياب زوجته التي لم يعد يذكر إلى أين قالت إنها ذاهبة؟!.. فقد كان الملل يقتله.. فقرر الذهاب لبيت صديقه فارس.. وفكر في نفسه أنه حتى لو لم يكن فارس في البيت فإنه يمكنه البقاء مع زوجته ناهد وابنته حتى يعود.. إن ناهد زوجة شريفة طيبة.. وامراة جذابة الحديث.. سوف يستمتع بالكلام معها في حالة عدم وجود زوجها.. إنها أشبه بإبنة له.. دائمًا تعامله كعم أو خال طيب.. هكذا فكر في نفسه.. وفورًا توجه لبيت فارس.. اجتاز حديقة المنزل.. وقرع الباب عدة مرات.. وظل منتظرًا دقائق طويلة على أمل أن يفتح باب البيت...

ولكن الباب لم يفتح رغم وجود فارس وابنته في البيت.. ابنته نائمة في سريرها في براءة وطهر.. وفارس أيضًا نائمًا في سريره.. ولكن عاريًّا في أحضان ريتا !

وناهد في عملها الذي تصر عليه رغم عدم احتياجها المادي له.. وفارس مطمئن أنها لن تعود الآن.. وخلسة نظر فارس وريتا من شباك حجرة النوم وعرفا أن من بالباب جوفاني.. ولم يكترثا كثيرًا لقدومه.. بل كتما أنفاسهما وأصوات ضحكهما وظل يراقباه من خلف شباك حجرة النوم وهو يقرع الباب بكل حماس.. حتى يأس وانصرف عائدًا لبيته القريب من بيت فارس.. فقط شارع طويل يبعد بين البيتين...

عاد جوفاني بيته ليحتسي المزيد من كؤوس الخمر.. وعاد فارس إلى سريره ملتفًا بملاءة السرير بجوار ريتا.. كان الموقف بالنسبة لهما مثير للضحك وتبادل النكات.. كانت طبيعة فارس النفسية أقرب لطبيعة ريتا.. تلك النفس الخبيثة التي لا تشم رائحة العفن ولا تميزه.. النفس العاجزة عن النفور من الخطيئة أو الشعور بالذنب.. فحتى الحيوان أحيانًا يميز ويشعر بالذنب بعكسهما.. استمرا في الإثم حتى الثمالة.. فعلاً معًا كل شيء وأي شيء خطر ببالهما وقتها.. لم تكن بينهما خطوط حمراء أو بيضاء.. كانا معا أشبه بجسد واحد فاسد.. حتى دخلت عليهما ناهد.. لتجد ما وجدت.. ويقوم شجار عنيف بينها وبين ريتا.. التي أشبعت وجه ناهد لكمات.. وكأنها هي الزوجة لا العشيقة الخائنة.. ثم بمنتهى القوة طرحتها أرضًا وأمسكت رأسها بكلتا يداها وضربتها أرضًا مرات عديدة...

فقدت ناهد الوعي ومع ذلك لم تتوقف ريتا عن وحشيتها.. حتى تأكدت من توقف أنفاس ناهد.. لم يكن يشغل بال أو انتباه فارس في أثناء هذه المجزرة النسوية من أجله.. إلا ارتداء ملابسه ليهرب.. ولكن صديقه جوفاني لم يمهله.. لقد دخل عليهم وشاهد كل شيء وكانت آخر كلمات لفظتها ناهد قبل أن تفارق الروح جسدها موجة كلامها لجوفاني:

«لقد قتلتني لأنى رأيتها معه في السرير.....»

فتأمل جوفاني جسد ريتا العاري ويداها الملطخة بدماء الضحية ناهد التي تحولت في هذه اللحظة لجثة هامدة تحت أقدامهم الثلاث.. فما كان من جوفاني سوى أنه أخرج مسدسه الذي كان لا يفارق جيبه.. وأطلق النار على فارس.. فوقع أرضًا.. فارتمت ريتا العارية فوق جسده تبكي.. فنادها جوفانى وعندما رفعت وجهها الباكي إليه.. قال لها:

«لقد أحببتك حقًا.. ولكنك قذرة لا يليق بك الحب.....»

وأطلق النار عليها ثم على نفسه...

أكثر من مائة عام مرت على تلك الليلة الدموية.. ولكن الوجع مازال قائم في قلب الضحايا.. كما أن الخوف من العقاب مازال يعشش بين أضلع القتلة الفجرة.. جوفاني كان يظن لمائة

عام وجود شبحه وحده داخل البيت.. تمامًا كما حدث لفارس.. وناهد كانت تمثل إنها جثة هامدة على زوجها طوال قرن، فقط انتقاما منه على خيانته لها ومشاهدته لها وهي تقتل أمام عينيه دون حتى محاولة انقاذها أو الدفاع عنها ولو بكلمة.. كانت تطير كل ليلة عاليًّا متخذة هيئة تنين.. تجوب البلاد في دقائق أو حتى لحظات حسب رغبتها.. وتظهر لمن تريد وتختفي وقتما تشاء.. كانت تسليتها الأطفال الصغار.. خاصة الأيتام والمرضى.. تظهر لهم وتحملهم فوق ظهرها وتذهب بهم حيث يحلمون بالذهاب ثم تعود بهم فرحين مبتسمين.. وفي الصباح يظنون أن ما حدث لهم مجرد حلم جميل ومبهج.. وتعود هي لهيئتها البشرية.. وترتدي جثتها المشوة وتنام بجانب فارس في حجرة نومهما أكثر من عشرة عقود..

ولطالما تساءلت ناهد لماذا لازال روحها معلقة بهذا البيت.. لماذا لا يظهر لها النور وتنتقل للعالم الآخر كعادة الأموات.. وعرفت بينها وبين نفسها إنها لازالت ورغم كل ما حدث من فارس تريد البقاء معه ولو في صورة جثة هامدة مشوهة.. أنه حبها الأول والأخير.. الرجل الوحيد الذي عرفته في حياتها.. كان دنيتها وعالمها.. فطبيعي أن يكون حتى جحيمها الأبدي!

- فارس.. صديقي الخائن النذل.. اشتقت لك وللعب القمار معك.. اشتقت حتى لنكاتك البذئية التي كنت تلقيها على مسامعي كلما كنت تريد طلب شيء مني لتراني مبتهج وتستغلني كعادتك الدنيئة.....

هكذا صاح شبح السيد جوفاني غرونكي في وجه فارس.. في صالة البيت بالدور الأول.. فتأمل كلا من ناهد وضياء المشهد فارغي الفاه من رد فعل جوفاني تجاه رؤية فارس الذي دفعه للانتحار بعد خيانته مع زوجته الشابة.. فاقترب منه فارس مصافحًا والعجيب أن جوفاني مد له يده قائلاً:

-لا تظننى غاضبًا منك ياصديقي.. لقد كانت ريتا زوجتي لعنها الله شابة وتحتاج رجل، خاصة وإنى عجوز في عمر جدها.. وأنت كنت هناك.. أمام عينيها المتطلبة ليل نهار.. وسيم وذكي وشهيتك تتسع لألف امرأة.. ولكن عتابي الوحيد عليك أنك اخفيت عني علاقتك بها.. صدقني.. كنت سأتركها لك كحذاء قديم مللت ارتدائه رغم رخصه وضيقه على قدمي.. وكنت سأقدمها لك كما كنت أقدم لك السيجار الفاخر.. إنها حتى أرخص كثيرًا منه!

تنهد فارس بقلة صبر قائلاً:

- صدقني هي حقًا لا تستحق انتحارك من أجلها.. كانت ثرثارة وغبية.. وهي التي ارتمت على.. وأنا ضعفت رغم حبي الكبير لك «جوفاني».. كنت فقط أريد مواساتها حتى لا تهجرك وأنت في مثل هذه العمر، بعيدًا عن وطنك.. لقد خفت عليك من الصدمة وقدمت تلك التضحية بقبول صداقة «ريتا» فقط من أجل عينيك.. أنت أبي الذي لم أكن أستطيع تحمل لوعة فراقه أو حتى تحمل رؤيته محطم القلب.. حزين.. مكسور.. لفراق زوجته.. إذا ملت الحياة هنا في الريف الهادئ .. وقررت الرحيل!

صفقت ناهد له بحرارة.. وقالت ساخرة:

- حتى أنا تأثرت بخطبتك الرائعة.. وكدت أصدقك وأذرف دمعة تأثرًا ببراعة كذبك.. ولكن وماذا عني أنا لما تركت ريتا تقتلني أمام عينيك وكان همك ارتداء ملابسك والهرب ياجبان؟!.. إن الشيطان نفسه يقف أمامك في خشوع لكي يتعلم الخبث والخداع ولكن صدقني لن تنجو هذه المرة.....

قاطعها فارس:

-ماذا ستفعلين لي ؟!.. نحن الأربعة.. مجرد أشباح.. أنا وأنت وجوفاني وضياء.. هذا الصامت هناك الذي لا أدري حتى

الآن لما هو محشور وسطنا ويجلس بيننا.. هذا البيت لا يمت لك بصلة وأنت حتى لم تقتل به مثلنا جميعًا.. فلماذا أنت هنا؟!!

أخيرًا تكلم ضياء.. الذي أسند ظهره على المدفأة الرخامية القابعة في زاوية صالة البيت الفسيحة .. وبدا أنه مسترخيًّا رغم كل ما يدور حوله:

-أنا مت منذ فترة قليلة.. وأنتم كنتم تعيشون منذ مائة عام.. ولا أعلم سبب وجود أرواحكم هنا حتى الآن محبوسة في هذا البيت.. أما أنا فطفولتي وطفولة أخي كلها قضيناها هنا في حديقة هذا البيت.. كنا نلعب معا هنا كل يوم كرة القدم وخاصة وأن بيتنا قريب من هنا.. وأنا هنا فقط أشم رائحة أخي وآره في كل زاوية في حديقة البيت.. لذا بقائي هنا لا نقاش فيه.. فحين كانت الناس تخاف الاقتراب من هذا البيت ظنا منهم أنه يسكنه الأشباح كنت أنا وأخي نلعب هنا ونملأ المكان بهجة وصخب ونجلب معنا أصدقائنا !

-هنا.. هنا.. هنا.. هل تدري كم مرة كررت هذه الكلمة ياصديقي؟!

سخر فارس من ضياء.. ثم تابع كلامه موجهًا كلامه لجوفاني ومستمدًا منه الدعم في الرد على ضياء:

-ارحل الآن ياضياء.. هذا ليس بيتك.. وليس معنى إني سمحت لك باللعب هنا وأنت طفل أن تكبر وتموت وتأتي وتتبجح بالظهور كشبح غضبت عليه السماء وخاف مواجه الضوء فقرر المكوث في بيت ليس ببيته.. اذهب لبيتك يا صديقي واتركنا لحالنا.. ما أسخف تطفلك علينا!

-فارس.. انسي رحيلي من هنا.. إن الونس الوحيد الباقى لي هو شبح أخي الذي مات غرقًا.. وهو لا يظهر إلا هنا بين الحين والآخر.. حقًا هو شبح صامت ولكنه أحيانًا يبتسم لي.. وهذا يكفيني...

صرخ فارس في وجه ضياء:

-لأنك من قتل أخيك.. أنت صاحب فكرة نزول أخيك ليصطاد لك سمكة من البحيرة.. رغم أن أمك يومها حذرتكما من نزول الماء لأن الطقس كان يومها سيء والمكان الذي دفعت أخيك للنزول به كان عميق ولا ينجو منه أحد.. كنت دوما تغار من أخيك وتتمنى الخلاص منه.. حتى إنك كنت تضربه كثيرًا وتخاصمه لأتفه الأسباب.. أنت قتلته ياضياء اعترف بهذا.....

على صوت ضياء وهو يقول:

-لم يحدث.. كنت طفلاً وقتها وكنت أحب أخي.. اخرس ولا تتحدث في هذا الموضوع مرة أخرى

-اخرج من هذا البيت ولن تسمعني أو تراني مرة أخرى !

قطع على فارس حفل القهر النفسي الذي يمارسه على ضياء قول جوفاني:

-هذا البيت لن يسكنه غيري.. أنا أريد الجميع خارجًا.. أنا انتحرت هنا.. وزوجتي قتلت هنا.. وهذا أقل تعويض لي يافارس عما فعلته معي في حياتي.. هيا الآن الجميع إلى الخارج!

فخرجت ناهد عن صمتها وصاحت في الثلاثة رجال:

-فيما يبدو أنكم نسيتم إني سيدة هذا البيت.. جئته عروس لفارس وعشت به أسعد أيام حياتي.. ولم أغادره حتى رغم موتى.. وابنتي ضاعت به.. بعد موتنا أنا وفارس.. لا أدري من تولى أمرها بعدنا.. وإن كانت عاشت سعيدة أم حزينة.. أنا لازالت انتظرها هنا.. ربما تأتي أو يأتي أحفادها أو حتى أحفاد أحفادها!

«حضرات السادة الأشباح»

فالتفت الجميع اتجاه صوت يارا القادم من الدور الثانى.. لتنزل لهم على سلم البيت الداخلي حاملة مسبحة بيضاء وجدتها بجوار سريرها.. مكتوب على حباتها تلك الكلمات باللون الذهبي:

«الظل يتبعك.. المرايا تحاصرك.. وحده النهر يناديك.. لترى وجهك فيه»

وقالت لهم:

«من تخصه هذه المسبحة يصبح هذا بيته» !

●●●

هذا بيتي !

«وأنا طفلة.. «حوالي سبع سنوات».. كنت معتقدة أني عندما أكبر يمكنني عمل صلح بين آدم وإبليس.. ومن ثم ترجع البشر ثانية للجنة وتنتهي معاناة البشرية.. كان معتقدي هذا.. براءة مني أو حماقة الطفولة وقتها.. وعندما كبرت اكتشفت أن كلا منا شيطانه داخله.. وما أصعب أن تصالح إنسان على نفسه.....»

هكذا قالت يارا التي نزلت سلالم البيت الداخلية في هدوء.. لا تشعر به حقيقة وإنما ادعته لتركز أنظار أربعة أشباح عليها واهتمامهم بما ستقول.. كانت تمسك بيدها المسبحة التي لاحظت تعلق أنظار الأشباح الأربعة بها...

فصاح بها فارس:

«مرحبًا بالفيلسوفة الجميلة.. مجنونتي الصغيرة.. هكذا يكون اكتمل السيرك في بيتك يا فارس.....»

واصدر صوت مشين من أنفه.. فرمقه جوفاني بنظرة نارية.. فانكمش فارس قليلاً بعد أن كان في اتجاهه للمزيد من الاستعراض والسخرية...

نظر جوفاني ل «يارا» مليًّا وقال لها:

«لا يهم لمن تلك المسبحة.. هذا البيت لي.. وأنا كسيد نبيل ساسمح لك أنت وحدك بالبقاء هنا.. أنت وابنتك أقصد.. ولن أفعل بك ما فعله فارس.. بل سأكون صديق ودود ومسلي.. والآن الجميع إلى الخارج.....»

لفت نظر الجميع فجأة صوت خطوات راقصة على الأرض.. فالتفت الأنظار اتجاه الصوت.. الذي لم يكن سوى صوت حذاء ريتا عالي الكعبين.. التي لم تكن ترتدي شيء سوى شال أحمر زاهي اللون.. وحذاء ذهبي عالي الكعبين.. كانت جميلة ومغرية ومبتسمة.. وكأنها كانت تمارس الهوى منذ قليل مع رجل تعشقه.. رمقتهم بنظرات غير مبالية وابتسامة ساحرة وهمست:

«الآن أنا مهمتي أصعب.. صدقًا هي مستحيلة.. وهي أن أصالحكم مع بعضكم.. أنكم مختلفين يا سادة في كل شيء.. في الدين.. في العرق.. في الانتماء.. يجمعكم فقط الرغبة في السيطرة على هذا البيت.. ليس حبًا في البيت في حد ذاته.. بل هي حرب فرض نفوذ وانتقام وإعلاء دين عن دين وتميز جنس بشري عن جنس بشري.. أنا الآن أفهمكم جيدًا.. أنتم لو أحببتم هذا البيت لاتحدتم للحفاظ عليه.. ولكن كلا منكم

يريد البيت ولا يهم إن كان وحده سيستطيع العيش فيه بمفرده أم لا.. أنتم تعساء وتبحثون عن أي وسيلة تسلية لأن الوحدة تقتلكم.. وبدلاً من مصاحبة بعضكم بعضًا.. تحاولون التخلص من بعض.. تبأ لكم ياسادة.. أشفق عليكم»

صاح بها ضياء:

«انظروا من يتحدث.. أنها السيدة المهذبة.. المحترمة.. ريتا.. لقد سمعت عنك الكثير من صديقتي ناهد ولكن أنت بارعة في تمثيل العقل والحكمة وأنت مجرد غانية قاتلة.. بلا ضمير.. تتلصص على الجميع طوال الوقت لتعرف كيف توقع بينهم العداوة والبغضاء.. تبأ لك يا فاتنة!»

اقتربت ريتا من ضياء بنعومة حتى التصقت به.. وفتحت شالها لتصبح أمامه.. عارية تمامًا.. فتعلقت أنظاره بتفاصيل جسدها كاملة الجمال.. وكأنه سُحِرَ من هول ما رأى.. فظهر التوتر على وجه ناهد وهي تشاهد لعبة ريتا القذرة مع ضياء.. وحاولت تحذيره بنظراتها من محاولات ريتا لاخضاعه لها بتلك الطريقة.. فهي موهبتها.. عرض محاسنها ومفاتنها منذ كانت على قيد الحياة.. وعندما لاحظت ريتا انهيار أي مقاومة من جانب ضياء.. خاصة وأن جسدها عندما ترفع عنه الشال يبرق وكأنه نهر من لهيب وماس.. صفعته ريتا.. فارتد ضياء

الى الخلف من شدة الصفعة.. فابتسمت ابتسامة فتيات الهوى وهي تحكم لف الشال مرة أخرى حول جسدها.. وقالت:

«هذا بيت أجدادي.. إن اليهود أقدم من سكن هذه البلد.. ووجودكم به غير مرغوب فيه.. كما ترون.. محكوم علي بالعري للأبد ولذا أريد البيت خاليًا.. ألا تعلموا أني خجولة.. للغاية.. والآن الجميع للخارج»

ثم تابعت كلامها:

«أنا لم أدنس جسدي المقدس بعلاقة غير طاهرة وأتحمل صداقة فارس إلا لأحصل على هذا البيت.. لقد تنازلت عن شرفي كامرأة لرجل كنت أحبه كثيرًا.. ليعود لي بيت أجدادي.. والآن كلكم للخارج.....»

فصاح بها فارس:

«كلنا للخارج !.. حتى زوجك الذي كنت تحبيه كثيرًا وتخونيه معي.. هو أيضًا للخارج ؟!.....»

فردت ريتا:

«البيت بيت أجدادي.. ومن العدالة أن تعيش به روحي للأبد.. لا يدخله إنس ولا شبح.. إن كرامتي لا تسمح لي مشاركة أحد في بيتي.....»

فرد عليها جوفانى:

«عندما تتحدث العاهرة عن الشرف.. يكون كلامها مقنع حد الابتذال لأنها تتحدث عن شيء خيالي لم تجربه ولن تجربه.. أنا قتلتك مرة والآن فيما يبدو إنى سأقتلك للمرة الثانية.....»

وأمسك جوفاني ريتا من رقبتها محاولاً خنقها.. وتظاهرت هي بالاقتراب من لفظ أنفاسها وصعوبة التنفس واصفرار وجهها حلو التقاطيع.. ثم فجأة ظهرت مرة أخرى في صالة البيت.. ضاحكة.. ساخرة من جوفانى .. الذي يراها الان مرتين.. مرة بين يديه يخنقها بكل قوته ويحاول كسر رقبتها ومرة على بعد متر منه.. وتقف أمامه بابتسامة واسعة وتحرضه على خيالها الوهمي الذي بين يديه ويحاول قتله.. قائلة:

«ايها العجوز المسكين.. كيف ستقتلني هذه المرة وأنا شبح.. ويداك لازالت ترتعش كأسد مخمور.. احكم يداك جيدًا على رقبتي ربما أمكنك قتلى للمرة الثانية.....»

وجلجلت ضحكتها كساقطة تثير زبائن آخر الليل لتكسب ودهم.. واشتاط هو غضبا عندما اختفى خيالها أو شبحها الذي بين يديه...

فتدخل ضياء الذي استجمع في لحظة كرامته المبعثرة أرضا وعاد الواثق بنفسه المتحكم بأعصابه:

«تخيلوا معي لو أن مغوليًّا من أحفاد جنكيز خان وهولاكو خرج إلى الشارع مطالبًا باسترجاع أملاك أجداده الضائعة في أواسط آسيا والهند وايران والعراق.. من المؤكد أن الناس سترميه بالجنون وسيحصبه الصغار بالحجارة.. أو لو أن إيطاليا من أحفاد يوليوس قيصر ونيرون قد خرج إلى ساحات روما صائحًا:

«وايوليوسياه وانيرونياه! .. أعيدوا إلينا عنب وتفاح وزعتر الشام التي سرقها منا العرب.. ستعتبره الناس مادة مسلية للتندر والضحك، وستلتقط كاميرات جوالاتهم بالصوت والصورة هذا الرجل الذي يبدو أنه قد بعث من جديد بعد ألفي عام !.. إن منطقك أحمق يا ريتا»

علت الأصوات.. مناقشات حادة ومشاحنات.. بين الأشباح الخمس.. فارس وناهد وضياء وجوفاني وريتا.. ويارا وسطهم لا تدري ماذا تفعل ؟!.. لقد جاءت هذا البيت البعيد هربًا من ضوضاء البشر وها هي تعاقب بخمسة أشباح مجانين.. يريد كل منهم طرد الباقيين خارج البيت معتقدًا أنه بيته وحده وهو صاحب الحق الأوحد في البقاء به...

فصرخت بهم يارا:

« كان لدي شعور بخواء داخلي شاسع.. قد ملأه وجودكم.. لذا أنا لا أكرهكم ولا أتمنى طردكم من البيت.. بل أتمنى أن تجمعنا صداقة.. أو حتى أدراك بمدى أهمية تعاونا للبقاء .. سأحكي لكم قصة هذه المسبحة.. لتعرفوا لمن هذا البيت.....»

فقاطعها فارس:

«البيت بيتي.. لا شيء يمكنه تغير تلك الحقيقة.. وأنت يا «يارا» من أيقظ هؤلاء الحمقى الملعونيين.. أنت اللعنة التي حلت عليّ وعلى بيتي.. أتمني قتلك.. أو حتى تعذيبك حتى تذوقي وابل أمرك ايتها الغبية....»

لم يشعر فارس بقرب ضياء منه حتى لكمه هذا الأخير في وجهه وصاح به:

«أيها الخنزير.. اتركها لحالها.. ألا يكفي موت ولدها وطلاقها وتهدم بيتها.. إنها لا تكرهنا ولا تخافنا رغم إننا مجرد أشباح تعيسة.. إنها تعرض علينا أن نكون أسرة.. أسرة كبيرة سعيدة.....»

فأمسك فارس، ضياء من تلابيبه وقرب وجهه من وجهه وصاح به:

«الطبيب المزيف يتحدث.. الذي وهم أهله وأهل قريته بأنه لازال طالبًا في كلية الطب ولم يخبرهم بفشله ورسوبه وتحويل أوراقه لكلية التجارة.. واضطراره للعمل كعامل نظافة في إحدى المستشفيات حتى ينهي تعليمه في القاهرة بعيدًا عن قريته حتى لا يعلم أحد بفضيحته.....»

فرد ضياء:

«بعد موت أبي لم يكن أمامي سوى ترك كلية الطب والالتحاق بأي كلية مصروفاتها أقل عن مصاريف كليتي.. هذا ليس عيبًا....»

فارس:

«ولكن القرية بأكملها كانت تناديك بدكتور ضياء.. أيها المخادع.. حتى أمك وأخواتك.. كانوا مخدوعين.. ولكن أظن بعد موتك قد فضح أمرك أيها المزيف.....»

ضياء:

«أنت شيطان لعين.. النار أولى بك.. تملك ألف عيب ولا ترى إلا عيوب الناس.. تبًا لك.....»

عادت يارا للصياح بأعلى صوت تملك قائلة:

«لنعد لهذه المسبحة ياسادة.. هذه المسبحة كانت لجد صاحبة البيت.. كان رجل مسيحي.. أخذ هذه المسبحة كهدية من صديقه المسلم في ليلة زفافه.. وهذا الصديق قد أخذها من صديق يهودي مقابل دين صغير كان له عنده.. حيث كان يعمل هذا اليهودي تاجرًا ويجوب البلاد.. وقد حصل علي المسبحة من رجل هندي متصوف مقابل بعض الحبوب.. فقد حصل عليها المتصوف من رجل يعبد البقر.. قد دافع عنه هو وبقرته في مواجهة أحد اللصوص وقطاع الطرق.. والغريب يا سادة أن كل من حصل على تلك المسبحة قد سبح عليها لإله.. والأغرب أن الرب قد قبل تلك الصلاة وحلت السكينة بأصحاب المسبحة.. فغاية مطالب السماء منا أن نتوفق عن إيذاء بعضنا البعض.. إن الله قد يسامح ويغفر للمذنب في حقه ولكنه لن يغفر أبدًا للمعتدي على حقوق أربابه»

فقالت ناهد:

«وماذا عن حقيقتنا؟.. هل نحن مجرد أجساد ؟.. كائنات مادية تنشد اللذة ونتجنب الألم.. مجموعة من الذرات المبرمجة كي تنمو وتنضج وتهدم ذاتها.. كلا منكم يظن أنه الأفضل.. إنه المندوب السامي عن الفرقة الناجية من البشر التي ينتمي

لهـا ولأفكارهـا ومعتقداتهـا.. إننـا ‍ في حقيقـة الأمـر مخلوقـات خالـدة.. ومـن العبـث اسـتمرار صراعـات البشـرية للأبـد بـدلاً مـن شـكر الـرب علـى كل هـذه النعـم.. وأهـم هـذه النعـم القـدرة علـى الحـب والمغفـرة......»

ولا تـدري لمـاذا جـرت عينيهـا نحـو فـارس.. وتسـآلت بينهـا وبـين نفسـها لمـاذا أحبتـه وتحبـه وعاجـزة عـن التوقـف عـن حبـه رغـم مـا فعلـه بهـا!

تكلم جوفاني أخيرًا:

«فكـرة بقائنـا جميعًـا في البيـت فكـرة لا بـأس بهـا يـا عزيزتـي يـارا.. ولكـن ريتـا وفـارس.. مجـرد نظـري لهمـا يشـعرني بوجـع في قلبـي وكأنـي طعنـت بسـكين غليـظ.. أنـا لا مانـع عنـدي وجـود ناهـد وضيـاء وحتـى شـبح أخـو ضيـاء.. أنـه شـبح هـادئ وصامـت ومبتسـم.. ولكـن ليغادرنـا فـارس وريتـا.. أنهمـا محـور شـر........»

فصرخ فارس:

«تبـأ لكـم.. وخاصـة أنـت يـا جوفانـي أيهـا العجـوز المخـرف.. هـل تظـن أن بإمكانـك طـردي مـن بيتـي.. ألا تخجـل مـن نفسـك وممـا فعلـت بـي وب «ريتـا» ؟!.. تلـك الفتـاة التـي اشـتريتها لتسـليك في آخـر أيامـك.. وأنـا وأنـت نعلـم أنهـا كانـت مضطـرة أن

تفعل ما فعلت معي فهي بشر.. فقد كانت في صحبتك تشعر أنها مع جدها المسن المريض، لا حتى مع أبيها.. كان تصرفها منطقي وطبيعي.. كيف تجرؤ أن تلمومها الآن ؟!.. لك نظرة متخلفة حقًا!.. فإذا كنت تريد قديسة تجلس عند قدميك فلما اتخذت ريتا زوجة.. بهرك جمالها وأعماك.. أليس كذلك ياصديقي؟!.. نحن الرجال نقع في حب الغانيات ثم نلموهن أن لم يتصرفن في حضرتنا كقديسات !!»

صفقت يارا في محاولة يائسة لوقف الصراع والمشادات الكلامية بين الأشباح الخمس.. ورفعت صوتها قدر الإمكان لتقول:

«أنا متعبة.. وأريد منكم هدنة صغيرة.. فترة استراحة.. سنضع قواعد وعلى الجميع احترامها.. لا يجوز لأي من ساكني هذا البيت التحدث عن خصوصيات شخص آخر.. أو محاولة جرح مشاعره وتذكيره بأوجاعه.. سنجرب أن نعيش معًا لفترة.. مجرد اختبار.. واطلب من الجميع ضبط النفس وتجنب استفزاز أي فردٍ في هذا البيت.....»

ورمقت فارس بنظرة تحذيرية.. تؤكد له أنه أهم المعنين بكلامها.. فهو أكثر الموجودين فظاظة وأسلطهم لسانًا ولا يرحم مطلقًا من يقع بين نابيه!

وصعدت الدور الثاني.. لتحمل ابنتها وتطعمها علبة زبادي قد غمست بها بعض البسكويتات.. ولم تتفاجأ كثيرًا عندما طرقت ناهد الباب ودخلت عليها.. لتتأملها لحظات ثم تقول لها:

«كيف أنت هكذا ؟!.. أقصد هل منطقي أن يتقبل عقلك فكرة وجودك مع ستة أشباح في بيت واحد بعيدًا عن الناس والعمران دون حتى أن يبدو عليك أي ارتباك أو خوف ؟!.....»

فأبتسمت يارا وهي تضع ابنتها جانبًا بعد أن مسحت لها فاهها الصغير بفوطة ناعمة مخصصة للأطفال وقالت:

«أنا تحملت ما هو أسوأ يا ناهد.. عاشرت رجل مدمن.. ويدعي طوال الوقت أنه بخير وأنه يمكنه التوقف عن تعاطي مخدره في أي وقت.. تحملت عائلة يهمها فقط أن اتزوج قبل ابنة الجيران وابنة عمي وابنة خالي.. وقبل أن أبلغ الثلاثين حتى لا أصبح عانس.. أتزوج ولا يهم من سأتزوج ؟.. أو كيف ستكون حياتي لو غضب على هذا الزوج وافترقنا ؟.. أنا برغم ما رأيت منكم.. يمكنني تحمل فكرة وجودكم بجواري.....»

طرق ضياء باب الحجرة مستئذنًا في الدخول على ناهد ويارا.. فابتسمت يارا وقالت موجهة كلامها لناهد:

«أنتم أشباح في غاية الأدب والرقة.. لم يستئذني يومًا زوجي قبل دخول حجرتي.. ادخل يا ضياء.. البيت بيتك.....»

جلس حولها ناهد وضياء.. هي على السرير حيث تنام بنتها بين أحضانها وناهد بجانبها على حافة السرير وضياء جلس على كرسي مريح في زاوية الحجرة:

«ضياء.. هل يضايقك لو سألتك كيف غادرت الحياة وأنت لازالت بهذا العمر الصغير ؟!.. أعتقد عمرك لا يتجاوز الثلاثين عامًا...»

تنهد ضياء حتى خرجت أنفاسه من صدره تكاد تحرق الحجرة بكل ما تحتوى.. ثم بدأ يبوح بنبرة آسف:

«بعد تخرجي من كلية التجارة.. ظللت أعمل في نفس المستشفى التي كنت أعمل بها وأنا طالب.. ولاحظ الجميع سهولة حفظي لاسماء الأدوية واستخداماتها المختلفة واكتسبت بالممارسة بعض مهارات التمريض.. فكنت اليد اليمنة للأطباء.. وخاصة من عرف منهم حكايتي وإني كنت طالب طب متفوق لولا الظروف القاسية التي منعتني من إكمال الدراسة بكليتي.. حتى أنهم كانوا أحيانًا يقبلوا رأي بحالة ما أو ترشيحي لدواء كبديل لدواء آخر غالي الثمن على المريض أو حتى قليل الوجود بالصيدليات.. وفي ليلة عيد.....»

وهنا ظهرت على وجه ضياء ابتسامة حسرة انحسرت في زاوية فمه وتابع كلامه بعد أن تخلص منها سريعًا:

«دخل مريض المستشفى الحكومي التي كنت أعمل بها.. وكان الطبيب المسئول الوحيد الذي كان بالمشفى وقتها قد جاءته مكالمة هاتفية بأن أمه تكاد تحتضر.. فطلب مني أن أظل في المشفى ولا أعود لبيتي حتى يعود فقد كان يعلم خبرتى الطبية وأنه يمكنني مساعدة الحالات البسيطة في حالة غيابه وأقسم لي أنه لن يتأخر أكثر من ساعة.. وظننت أنها ساعة وسيعود ليكمل ورديته وأسافر أنا لبلدي وأخوتي.. وأن أرى سريري أخيرًا وأخلد للراحة، لقد كنت لم أنم منذ يومين كاملين بسبب ضغط العمل.. وصدقته....»

« كان هذا المريض شاب.. واضح من شكله أنه تشاجر مع أحدهما.. وقد أوسعه ضربًا وأصاب رأسه بجرح عميق.. وسريعًا أنا وإحدى الممرضات التي كنت أحلم بالزواج منها يومًا.. قمنا بعمل اللازم وانقاذ الشاب وخياطة الجرح وعمل كل المطلوب على أكمل وجه.. وكأنى قد تقمصت شخصية الدكتور «مجدي يعقوب»...»

وابتسم ضياء على نكتته الموجعة لقلبه حتى الآن وتابع كلامه:

«ولم نترك الشاب إلا وهو بخير وقادر على الكلام والحركة.. ولكن كان بصحبة الشاب بعض من الشباب.. عندما عرفوا بالصدفة أنى لست طبيب وأنى لا أملك حق إعطائهم تقريرًا طبيًّا.. لعمل محضر في قسم الشرطة ضد الجاني على صاحبهم.. ومع مشاجرة بيني وبينهم وتراشق بالألفاظ النابية.. والقذرة.. اعتدوا على جسديا بالضرب والتنكيل.. فهربت من المستشفى متوجسًا خيفة منهم وقدت دراجتي النارية هربًا لأي مكان بعيدًا عن هذا الجحيم.. وخاصة وأنهم هددوني بفضح أمري.. إني انتحلت صفة طبيب ومارست الطب.. مع أن الحقيقة إني أنقذت حياة صديقهم ولم أرتكب خطأ طبي واحد.. وطبعًا لأني كنت مضروب ومتعب ولم أنم منذ يومين.. وأبكي.. لم أكن أرى الطريق.. ولم أرى تلك الشاحنة الضخمة التي سحقتنى أنا ودراجتي النارية وساوتنا بالأسفلت .....»

لاحظ ضياء الدموع في عيني يارا وناهد.. فسكت.. فسألته يارا:

«هـذه المشـفى التـي كنـت تعمـل بهـا.. لـم يكـن بهـا ولـو فـرد أمـن واحـد يدافـع عنـك أو حتـى طبيـب بديـل للطبيـب الـذي اضطرتـه الظـروف للمغـادرة ؟.....»

«نعـم لدينـا فـرد أمـن ولكنـه رجـل عجـوز.. لـم يملـك حتـى الدفـاع عـن نفسـه وهـرب إلـى الحمـام.. فـور بـدء الشـجار بينـي وبـين الشـباب المصاحـب للمريـض.. لقـد خـاف علـى نفسـه.. وكان يريـد أن يعـود لبيتـه وأولاده سـالمًا ليلـة العيـد.. وفي الأماكـن الحكوميـة.. دائمًـا الإمكانيـات قليلـة ولا شـيء يحمـي الطبيـب أو الموظـف مـن المرضـى أو الجمهـور الـذي يقـدم لـه الخدمـات.. دائمًـا يتـم الترويـج علـى أن الموظـف الحكومـي مهمـل.. مرتشـي.. كسـول.. يعقـد الأمـور.. مـع أن الحقيقـة غالبًـا غيـر ذلـك.. الحقيقـة أن الموظـف الحكومـي يعمـل تحـت ضغـوط غيـر إنسـانية وفـى أماكـن قـذرة.. وبإمكانيـات تـكاد تكـون معدومـة وفي النهايـة يحاسـب علـى أتفـه خطـأ.. أنـا لا أبـرئ نفسـي ولكـن مـاذا كان يمكننـي أن أفعـل والمشـفى بـلا طبيـب والمريـض رأسـه ينـزف أمامـي ؟!.....»

دخـل عليهـم شـبح السـيد جوفانـي دون اسـتئذان وقائـلاً بصـوت عالـى سـاخر:

«هـل تعلمـون مـاذا يفعـل فـارس الآن ؟!.. إنـه راكـع علـى ركبتيـه ويصلـى أمـام تمثـال العـذراء الـذي في صالـة البيـت ويدعـو علينـا لأننـا احتللنـا بيتـه.....»

فانفجر الجميع ضاحكًا..

وقفت يارا تتأمل فارس الذي بدا عليه الخشوع في صلاته.. وانتظرت حتى انتهى وقالت له هامسة.. ضاحكة للمرة الأولي في وجهه من قلبها:

«نظرت في معظم الأمم التي أهلكها الله.. فوجدت السبب الأهم لهلاكهم غياب الأخلاق وتمسكهم بتدين وهمي قاصر على الطقوس الصماء.. ظاهرية التدين.. بعيدًا عن قيم الحق والخير والجمال والعدل!

فالتدين الذي لا يخلق منك إنسان أرحم.. اعدل.. أطيب.. أنقى.. ذو إحساس عالي بواجبه تجاه إنسانيته ورقيها.. هو تدين فارغ وثني في نظري.. فكل عبادة لها معنى لتشعر وتقترب وترتقي بروحك.....»

ثم تابعت:

«كل ما أريد قوله، هو أن ما يسمى بالدين في أيامنا هذه، هو تمامًا ما جاء يحاربه كل رسول أو نبي !»

سأحكي مزحة ولكن لا تبكي!

أحيانًا أتصور وبعد ما شاهدته في حياتي من أعاجيب.. إني في هذا البيت كالتي تعيش على جزيرة خالية من الناس.. لم يتبقي لها إلا نفسها.. وأحيانًا أظن أنه خارج جدران هذا البيت أنه قد انتشر فيروس فتاك.. يحول الناس لمخلوقات شرسة ضارية.. مع إنهم لازالوا جسديًّا في صورة شبه أدمية.. فتجد الذي كان صديقك الأقرب منذ يوم أو بضع يوم أو أقل.. قد تحول لعدو فاجر الخصومة يصارعك بوحشية على توافه الأمور وكأنكما في حرب منذ خلقتما ولم تكونا يومًا أعز الأصحاب.. فتسأل نفسك من هذا ؟!.. وأين ذهب من كان أحب إليك من نفسك ؟!.. هل كان يمثل المودة ؟! ولماذا يمثل عليك وأنت كنت تعطي له دون طلب وبحب وتسامح ؟!.. فتغضب من نفسك أكثر من غضبك منه.. لأنه استطاع أن يقنعك إنك صديقه.. بينما أنت كنت ضحيته الذي سلبها ما يريد ثم تحول عنها مظهرًا وجهه الحقيقي المخيف!

لذا صرت دون قصد مني أحرص الناس على المكوث بالبيت وكأنه سفينة نوح وسط طوفان من الحقد والكراهية والشراسة التي اجتاحت عالمنا اليوم.. رحماك ربي العليم بنا!

دق جرس الباب..

كانت يارا تجلس على رأس مائدة الطعام القابعة بالدور الأول بالبيت التي تكفي لثمان أشخاص.. ويجلس حولها الأشباح الست.. ضياء وأخيه الأصغر المبتسم دومًا دون كلمة أو حتى تغير ملامح وجهه الطفولية الهادئة الساكنة.. والسيد جوفاني وبجانبه ريتا التي تغمز له خلسة، كل فترة وأخرى وكأن بينهما سر خفي أو نكتة إباحية ترويها له بعينيها رائعة الجمال، شديدة الخبث.. وأخيرًا الزوج والزوجة أصحاب البيت.. ناهد وفارس.. وكان هناك كرسي متبقي واحد فارغ من الكرسي الثمان من كراسي المائدة التي احتوت على اتساعها طبق واحد ل يارا به «معكرونة» شهية.. كعشاء لها.. أعدتها يارا لنفسها بعد نوم ابنتها «مي»...

جلس الجميع حولها.. في هدوء.. فابتسمت لهم ابتسامة مشجعة على الحديث معها أو حتى مع بعضهم البعض ولكن دون المزيد من العراك أو المشادات الكلامية وتبادل الاتهامات والانتهاء بالخناق والأصوات العالية.. كما حدث طوال اليوم...

حتى دق جرس الباب !

تعجبت يارا من نظرات فارس التي ثبتها على وجهها مما أجبرها على النظر له.. طافت عينيها الواسعة البنية

ذات الرموش الكثيفة بملامح وجه التي بدت جميلة في تلك اللحظة واختفى منها عطر الشر وعندما وصلت لعينيه العميقة.. حرفيًّا غرقت وكأنها نظرت داخل بئر.. بئر لا نهاية له ومستحيل الوصول لقاعه البعيد هناك في الظلمات.. وكأن مس سحرى سرق روحها من جسدها.. ليقذفها بعيدًا في زمن بعيد.. حيث فرسان وخيل ومعركة حاسمة تدور في شهر أكتوبر عام «٧٣٢» ميلاديًّا.. بين المسلمين بقيادة «عبد الرحمن الغافقي» والفرنجة والبوغنديين.. الذين هم الآن من أهل دولة الدنمارك.. وقائدهم «شارل مارتيل».. كانت المعركة في شهر رمضان.. وكان المسلمين يصطحبون في معركتهم نسائهم وأطفالهم وكان هذا خطأهم الأول الفادح.. أرض المعركة كانت دولة فرنسا.. بين مدينتي «بواتييه» و «تور».. ودارت المعركة بين المسلمين التابعين وقتها للدولة الأموية.. والفرنجة.. وحشد «الغافقى» وقتها أكبر جيش أموي دخل الأندلس وغالية، حتى ذلك الوقت.. وفعل نفس الشيء القائد «شارل مارتيل».. بل أنه تفوق بزيادة عدد جيشه عن جيش المسلمين وهذا ماغفلت عنه استخبارات قائد المسلمين «الغافقي».. فقد ضم «مارتيل» لجيشه حتى المرتزقة غير المسيحيين من الجنود ولم يبالي كثيرًا بوثنيتهم !.. مع أنها كانت حرب صلبية من وجهة نظره!

تفحصت يارا ما حولها لتجد نفسها في خيمة كبيرة تضم العديد من النساء والأطفال.. النساء في حالة رعب مما يدور خارج الخيمة والأطفال في حالة هلع وصراخ دائمًا من هول الأصوات حولهم.. وأمهات الرضع ذهلت عن إرضاع ما على حجورهن من صغار وحديثي الولادة.. ودفع الفضول يارا لتشق طريقها خارج الخيمة لتجد فارس قد ظهر امامها وهو يرتدي لبس أحد جنود الفرنجة وقد دهن حول عينيه بالأسود وصاح في وجهها:

«أهلا بك في معركة «بلاط الشهداء» أو «بواتييه».. إنها المعركة المفضلة لدي على مر العصور.. اعتبر مؤرخو الفرنجة نتيجة المعركة حكم إلهي لصالح الفرنجة، كما اكتسب «شارل مارتل» من حينها لقبه «Martellus» الذي يعني المطرقة»

عرفت يارا أنها في متاهة ذهنية جديدة من صنع فارس.. ولكن هذه المرة لم تفهم قصده للوهلة الأولى من هذه الرحلة عبر الزمان والمكان.. هل هو يريد التفآخر بانتصار أجداده المسيحيين على المسلمين والدولة الأموية التي كانت حدودها من أطراف الصين شرقًا حتى جنوب فرنسا غربًا، وتمكنت من فتح أفريقيا والمغرب والأندلس وجنوب الغال والسند وما وراء النهر.. وفكرت للحظة هل يريد إذلالها كعادته أم كان في جعبته شيء آخر؟

خرجت من الخيمة تتلمس الخطى وهي تكمم وجهها بطرحتها الحريرية الحمراء التي وجدتها فوق رأسها.. كان الجو خانقًا والحرائق مشتعلة في كل مكان وفي كثير من الخيم.. ووجدت صعوبة في التنفس ومع ذلك واصلت المسير لتصل لتلك اللحظة التي يريد لها فارس أن تشاهدها.. لحظة مقتل قائد المسلمين «الغافقي».. لقد أصابه أحد جنود الفرنجة من الخلف بسهم مميت.. فوقع الأسد البطل في لحظتها ارضا.. وكأن السهم كان القشة التي قسمت ظهر البطل.. فهو طوال المعركة كان يقاتل كنمر غاضب.. دفاعًا عن فكرته.. فكرته النورانية بأن «لا إله إلا الله».. ولكنه مات في لحظة ليقدم روحه ثمن إيمانه.. ثمن رغبته في نشر الإنسانية بدلاً من ضياع البشر في متاهات البعد عن السماء!

هكذا كان يؤمن «الغافقي» وكل بطل استشهد وقتها في تلك المعركة.. فجرت نحو جثمان القائد «الغافقي».. لتجد رجلاً بجواره يشبه فارس كثيرًا.. ولكن بطريقة ما، ليس هو.. يراقب في صمت.. ويرتدي لبس جنود الفرنجة ويحمل القوس الذي انطلق منه السهم قبل قليل.. كان يريد أن يتأكد أنه حقًا قتل البطل الأسطوري «الغافقى».. قتل المارد الذي عندما يحلم به قائده «شارل مارتل» فيقوم مفزوعًا من نومه

وهـو يـكاد يبلل ملابسـه مـن الخـوف.. فقـد كان «الغافقـي» رجـلاً يضـرب بـه المثل في القـوة والشـجاعة والإقـدام.. ثم قتـل في تلـك المعركـة الكثيـر مـن الصالحـين والقـادة العظمـاء فاسـتغل جيـش الفرنجـة ذلـك وهاجـم جيـش المسـلمين مـن الخلـف حيـث خيـم الأطفـال والنسـاء...

لـم تنسَ يـارا تلـك النظـرة التـي برقـت في عيني الجنـدي الذي قتـل «الغافقـي».. لقـد تأملـه بخـوف حتـى وهـو ملقـى علـى الأرض جثـة هامـدة سـاكنة عاجـزة عـن إحـداث أي حـراك.. ثـم انصـرف عنـه متوجـس بحثًـا عـن قائدئـه ليبشـره بقتلـه «الغافقـي»...

بعدهـا ظهـر فـارس.. ليجـد يـارا منهـارة باكيـة.. فالمـوت مـن حولهـا في كل مـكان والظـلام انتصـر والخيـر قتـل.. فأمسـك يدهـا وهـو يقـول:

«بعـد هـذه المعركـة.. بـلاط الشـهداء.. انشـغل ولاة الأندلـس بمشـاكلهم الداخليـة وتكالبهـم علـى السـلطة.. ففقـدوا المناطـق التـي سـيطروا عليهـا في بـلاد الغـال.. الواحـدة تلـو الأخـرى حتـى لـم يبـق بأيديهـم في عهـد «يوسـف بـن عبـد الرحمـن الفهري» والـي الأندلـس الأخيـر سـوى مدينـة «أربونة» فقـط.. والتـي سـقطت نهائيًـا عـام ٧٥٩ م.. عندمـا أمـر «عبـد الرحمـن الداخل» بإجلاء المسـلمين من المدينـة.. ومـن ناحيـة أخـرى، أنشـأ «شـارلمان» حفيـد «شـارل مارتـل»

بعد ذلك الثغر الإسباني في «البرانس» لتكون بمثابة منطقة عازلة عن مناطق المسلمين خلف «البرانس».. لو انتصر المسلمين في تلك المعركة لكان القرآن يدرس اليوم في أوكسفورد ولكان علماء الجامعة اليوم يشرحون للطلاب باستفاضة عن الوحي الذي أنزل على النبي محمد.. هذا زمن كان يموت به الأبطال دفعًا عن فكرة.. مجرد فكرة عظيمة!.. وفى عام ١٤٩٩ ميلاديا ، في غرناطة، ألقى الأسقف ثيسنيروس «فرانثيسكو خيمينيث دي ثيسنيروس».. إلى النار الكتب التي تتحدث عن ثمانية قرون من الثقافة الإسلامية في إسبانيا.....»

وعاد جرس الباب يدق.. لتجد يارا نفسها قد عادت بيتها.. وكأنها لم تغادر ولم ترَ ما رأت ولم تسمع ما سمعت.. ولكنها هذه المرة لم تكن ناقمة كعادتها على فارس كلما عصف بذهنها بخيلاته التي لا تنتهي وغرابتها التي لا توصف..

فقامت من مكانها من على المائدة لتفتح باب البيت وتركت الأشباح الست مكانهم حول طاولة العشاء.. لتجد بالباب رجل!

ضحكت بصورة هستيرية عندما فتحت الباب.. فقد كان من بالباب هو نفسه الجندي الذي قتل القائد «الغافقي» منذ قليل.. نعم.. ذلك الذي كان يشبه فارس.. ولكن.. ملابسه.. عصرية للغاية.. جينز وقميص قطني.. بعيدة تمامًا عن ملابس

ذلك الجندى القاتل التي ترجع لأكثر من ألف سنة وبضع قرون.. وبعيدة تمامًا عن بذلة فارس الأنيقة قديمة التطراز.. إنه شاب عصرى يقربها في العمر.. كما ظنت.. أو أكبر بعدة سنوات.. ملامح وجهه نفس ملامح وجه فارس.. فقط شعره فاتح قليلا وطويل يصل لكتفه وعينيه عميقة ومربكة ويحمل شنطة سفر كبيرة للغاية.. تسآلت بينها وبين نفسها ماذا تحتوي؟!.. إنه الفضول الإنساني الذي يشتعل بمجرد رؤية بعض الأشياء لتستيقظ رغبتنا بمعرفة ماذا تحتوي أو ماذا خلفها؟!.. كشنطة كبيرة أو شيء مغطى أو باب مغلق.. فيقتلنا الفضول لمعرفة ماذا خلفه ؟!

حياها بإبتسامة واسعة فوجدت نفسها تغلق الباب في وجهه بكل قوتها وتتركه خارج البيت وتعاود إدراجها لداخل البيت...

تعجب لأمرها وقرع جرس الباب ثانية.. ووقف منتظر ومستلم للظلام والبرد خارج البيت !

جرت على فارس والغضب يتملكها قائلة:

«من هذا الذي خارج البيت.. هل هو أنت؟!.. أنا تعبت مما تفعله بذهني.. منذ لحظات أخذتني لمعركة في القرن الثامن لأشاهد مجزرة إنسانية بشعة.. والآن تأتي لي بالجندي الذي

قتل «الغافقي».. ألا تكتفي من تعذيبي أبدًا ودفعي للجنون.. أنت شبح عجوز وسادي.. هل تعلم هذا ؟.....»

تكتل الأشباح الست أمام النافذة المطلة على الحديقة والتي بالكاد يرى منها باب البيت وهم يقتلهم الفضول ليعرفوا من بالباب.. فنظرت لهم يارا بتعجب.. حتى همست لها ناهد:

«ارجوك يا «يارا» افتحي الباب أنه شاب يشبه فارس كثيرًا.. لعله حفيدي.. ارجوك.....»

فدققت يارا النظر ل «فارس» فوجدت وجهه كوجه مقامر متمرس.. وخالي من أي تعبير،يفهم منه شيء.. فلم تعرف هل هذا إنسان حقًا أم أحد أشباح فارس التي لا تنتهي؟!.. أم شبح جديد تمامًا وروحه عابرة ؟!.. وارتعبت لتلك الفكرة المزعجة.. فالبيت لا ينقصه أشباح ورعب وغموض وقصص جديدة!

للمرة الثانية فتحت الباب فهب عليها نسيم يحمل عطر زائرها الفواح.. وهمست لنفسها:

«رائحته زكية للغاية بعكس رائحة جده فارس النتنة.. هذا لو كان أحد أفراد هذه العائلة أصلاً ؟!»

كان يتأملها مبتسمًا وهي تجري حوارًا جديًّا مع نفسها وتنظر له ببلاهة وكأنها نسيت كيف تجري حديث صغير مثمر مع أحد البشر؟!

كاد أن يفتح فمه ليتحدث بالإنجليزية.. التي يمكنه تكلمها بطلاقة ودون تفكير في تركيب الجمل أو صعوبة في اختيار المفردات ولكنه تذكر أنه الآن في مصر وقد غادر «أمريكا».. فعاد يبحث بينه وبين نفسه عن النسخة العربية من لسانه.. حتى تفهمه سريعًا:

«أنا ريتشارد.. المفروض إني الوريث الوحيد لهذا البيت.....»

صدمت يارا من قوله.. هي تعرف أن جارتها كان لديها ابن.. ولكن لم تكن تعرف شكله.. حتى صورته المعلقة في صالة شقة جارتها كانت صورة لمراهق نحيل للغاية في السابعة عشر.. حليق الرأس تمامًا.. ووجهه مغطى بالكامل بحب الشباب والدمامل.. وأبعد ما يكون عن هذا الرجل الجميل الواقف أمامها.. وتعجبت يارا أنها لم تسأل جارتها ولا مرة عن اسم هذا المراهق.. فجارتها كانت تكره الحديث عن موضوع ابنها وفراقه لها.. كان يؤلمها اختياره الحياة بعيدًا عنها مهما كانت المغريات.. فكانت أمه نادرا ما تذكره بين كلماتها.. ولو جاءت

سيرته أغلقتها فورًا وكأنه جرح دامي تريد تغطيته سريعًا حتى يمكنه أن يندمل ولو قليلاً.. فكان فوق احتمالها أن يهجرها فلذة كبدها فقط بحثًا عن الرفاهية في بلد بعيد مع إناس أبعد ما يكونوا عن عاداتنا وتقاليدنا وثقافتنا...

«أهلا بك.. لا يمكنني دعوتك للدخول.. فأنا في البيت وحدي.. والوقت ليلاً.. ويوسفني إخبارك أن والدتك قد تنازلت لي عن البيت بمحض إرادتها.. ويوسفني إخبارك أني لا أستطيع ترك البيت لك.. فليس لي بيت غيره حاليًّا أنا وابنتى.....»

فرد عليها متوسلاً:

«أنا أيضًا لدى ابنة.. وهي نائمة الآن في السيارة التي استجرتها هناك....»

وأشار برجاء إلى سيارة حديثة تقف على جانب الطريق تحت شجرة وارفة:

«أرجوكي سيدتي.. ابنتي مريضة وتحتاج الراحة والدفء والطمانينة.. أمها ماتت منذ مدة قصيرة والطفلة في حالة يرثى لها.. يمكننا تقاسم البيت أنا وأنت وابنتى وابنتك.. هو أكثر من دور.....»

فكرت لحظة أنه يمكنه العودة للقاهرة واستئجار غرفة في فندق أو حتى استئجار شقة صغيرة.. هذا ليس شأنها.. لذا رأت أن تتحدث معه بحزم وترفض طلبه.. إنها تهرب من الناس فما الذي يجبرها على قبول هذا الغريب في بيتها ؟!.. فكان ردها:

«لن أستطيع تقاسم البيت معك.. نحن هنا في الريف.. غير مسموح بأن يسكن رجل مع امرأة غريبة عنه.. أرجوك اذهب من حيث اتيت.. معي عقد يثبت ملكيتي للبيت.. أعتذر لك»

وأغلقت الباب بوجه سريعًا قبل أن يجيبها ببنت شفي...

حمام ساخن جعلها تكاد أن تنسى نظرات اللوم التي رمقها بها الأشباح الست بعد إغلاقها الباب في وجه «ريتشارد» الذي تظن ناهد أنه ربما يكون حفيدها المنتظر.. وفارس اكتفى بذم شفتيه والأربعة الباقين قتلهم الفضول في صمت لمعرفة من هذا الرجل حقًا ؟!

ولكن يارا تجاهلتهم وحاولت متعمدة الهاء نفسها عن اجتماع الأشباح الست معًا للمرة الأولى لتبادل النقاش.. كانت ناهد تحاول كسب تعاطف الجميع مع ريتشارد.. كانت تتحدث عنه وكأنه حقا حفيدها وصاحب البيت.. ولم تحاول يارا حتى

محاولة معرفة إلى أين انتهى اجتماعهم وعلى ماذا اتفقوا وهل يمكنهم الاتفاق حقًا على شيء ما ؟!

وتركتهم مجتمعين وناهد تخطب بهم محرضة إياهم على التعاطف مع الزائر المجهول ضد يارا.. أو ضد عناد يارا برفضها بقاء ريتشارد في البيت معها ولو في أصغر غرف البيت !

استيقظت يارا من نومها على صوت رجل يغنى في الحمام المجاور لغرفة نومها.. أغنية بالانجليزية.. ظنت في البداية الصوت لأحد أشباح البيت ولكنها شعرت أنها تسمع هذا الصوت للمرة الأولى في حياتها.. أو ربما للمرة الثانية.. هي لا تتذكر جيدًا.. والعجيب أنها اكتشفت ان ابنتها «مي» قد استيقظت هي الأخرى من نومها.. وجلست بجانبها وعلى وجهها الملائكي ابتسامة رضى واسعة عن الصوت الذي تسمعه.. حقًا كان صوته جميل وعذب.. ولكن يارا كانت مفزوعة وتريد معرفة من هذا الذي اقتحم بيتها ودخل حمامها ويغني أغنية رائعة للمغنية الأمريكية «ويتني هيوستن –Whitney Houston»

«إذا أنا

If I

بقيت

Should stay

سأكون عقبة في طريقك

I would only be in your way

لذلك سأذهب

So I'll go

لكني أعرف

But I know

سوف أفكر بك في كل خطوة من الطريق

I'll think of you every step of the way

و أنا..

And I ...

سوف دائمًا

Will always

أحبك يا

Love you, oohh

سوف دائمًا

Will always

أحبك

Love you

أنت

You

عزيزي

My darling you

مممممممم

Mmm-mm

حلو ومر

Bitter.. sweet

ذكريات

Memories

هذا هو كل ما آخذه معي

That is all I'm taking with me

إذا إلى اللقاء

So good-bye

من فضلك لا تبكي

Please don't cry

كلانا يعرف أنني لست ما أنت

We both know I'm not what you

تحتاج

You need

و انا...

And I ...

سوف أحبك دائمًا

Will always love you

أنا ...

I ...

سوف أحبك دائمًا

Will always love you

أنت يا

You, ooh

أنا أتمنى

I hope

أن تحسن الحياة معاملتك

life treats you kind

وآمل

And I hope

لديك كل ما كنت تحلم به

you have all you've dreamed of

وأتمنى لك المتعة

And I wish you joy

و السعادة

and happiness

ولكن قبل كل هذا

But above all this

أتمنى لك الحب

I wish you love

و أنا...

And I ...

سوف أحبك دائمًا

Will always love you»

على أصابع قدميها العاريتين مشت نحو الحمام.. نحو مصدر الصوت.. كان الباب مفتوحًا وبه رجل يحمل في يده ماكينة حلاقة وعلى وجهه الكثير من الصابون ومع ذلك تعرفت يارا عليه فورًا إنه زائرها الليلي.. الذي طردته من على بابها.. إنه «ريتشارد»!

صرخت بوجهه بمجرد التقاء عينيها البنية بعينيه الخضراء:

«كيف دخلت إلى هنا ؟!.. سأتصل بالشرطة.....»

تأملها مليًّا وكأنه يتأمل قطة صغيرة بيضاء في حالة غضب وثورة لأن أحدهم ربط في ذيلها ورقة.. قبل أن يقول بصوت منخفض ساخر:

«أولاً ليس في البيت هاتف.. ولا أظن أن في هاتفك رصيد لتتصلي بأحد.. لا أظن أصلاً أنك قمت بشحن هاتفك مؤخرًا.. ثانيًّا حتى لو حدثت المعجزة وآتت الشرطة.. الجميع سيعرف أن رجل غريب بات ليلته في هذا البيت البعيد عن العمران معك.. وأظن أنك تكرهي هذا.. ثالثًا.. لا تنسي هذا البيت المفروض أن يكون بيتي أنا لا أنت.. لا أدرى لماذا تنازلت لك أمي.. رحمها الله.. عنه دون مقابل هل سحرتي تلك العجوز في آخر أيامها.. لتفعل فعلتها وتحرمني أنا ابنها الوحيد من البيت ؟!!»

تذكرت يارا بمرارة إنها حقًا منذ جاءت لهذا البيت وهي نسيت كل شيء قد يربطها بعالمها خارج حدود هذا البيت.. لقد تعمدت غلق هاتفها ووضعه في أحد الأدراج حتى لا يتصل بها أحد وهي بدورها لم يعد لها أحد ترغب بالحديث معه.. نظرت له مجددًا.. كان مبتسمًا لها بطريقة مستفزة.. ووجدته يعطيها ظهره ويكمل حلاقة ذقنه.. تمنت أن تجرحه تلك الشفرة الحادة التي في يده وينزف حتى يغرق في دمائه ووجدت نفسها تصرخ به مرة ثانية:

«فورًا إلى الخارج ولا قتلتك.. صدقني.. لا أحد يعبث معي.....»

«عندي لك عرض رائع.. المال مقابل بقائي.. اعتبرني مجرد مستأجر لغرفة.. وأغلب اليوم أعدك ساكون خارج البيت.. سأتي للنوم فقط.. لقد وجدت غرفة صغيرة بعيدة عن حجرتك كثيرًا وضعت بها حاجاتي.. وصدقًا لن أزعجك....»

هي حقًا تحتاج للمال.. ولكنها لا تستطيع البقاء معه تحت سقف بيت واحد.. وفكرت كيف دخل البيت أصلاً.. هل هو شبح مثل فارس وناهد وضياء وأخيه وجوفاني وريتا ؟!.. واين ابنته المزعومة التي كان يتحدث عنها ؟!.. الكثير من الاسئلة طرقت باب فكرها المتوتر ولكنها عادت تسأله:

«إذا كان معك مال فاذهب واستأجر أي مكان آخر....»

فأجابها بنبرة حزن:

«لي أقارب بالقرب من هنا.. لقد تعبت من الوحدة.. ينقصني وجود أسرة.....»

بدأت تشك أنه شبح جديد اقتحم بيتها ويعاني من الوحدة.. وابتسمت لتلك الفكرة المروعة.. لو كان إنسان حقًا فكيف دخل البيت وهي التي تغلق كل ليلة أبواب البيت باحكام ونوافذه.. وظنت في نفسها أنه شبح.. حر طليق يعبر إلى حيث يريد.. ولكنه الشبح الأول الذي يعرض عليها المال مقابل بقائه!

«وكم ستدفع أيها الشبح الجديد مقابل بقائك؟ ولكن.. ممنوع أن تغني مجددًا.. اتفقنا ؟!.....»

لاحظ بعدها أنها تتحدث لنفسها أو لأشخاص غير مرئين أكثر مما تتحدث معه..

فتركته وذهبت لتعد إفطار ابنتها.. فدخل حجرته وهو يكتم ضحكته.. إنها تظنه شبح.. وعندما رن هاتفه المحمول تخلل حديثه مع صديقه.. حكايته المثيرة مع يارا فوجد نفسه يقول لصديقه عبر الهاتف:

«سأحكي مزحة ولكن لا تبكي.. أعيش مع سيدة رائعة الجمال.. ذلك الحسن العربي الذي يسيطر على جميع حواسك ويقذفك عند حدود الشمس دون رحمة.. ولكنها تظن أنى ميت وما يظهر أمامها في صورتي هو شبح.. هى لا تعلم إنى مت منذ ماتت زوجتى وتيتمت طفلتي الصغيرة.. ويوم دخلت السجن وأنا متهم بقتلها وأنا الذي كان يهون عليه قتل نفسه ولا يهون عليه دمعة من عينيها.. اطمئن لقد شفيت تمامًا من الاكتئاب.. هذه السيدة جميلة وبها حزن يزيدها رقة ولكن عقلها به لوثة ما.. تمن لى أن يسمح لي القدر أن أساعدها.. قبل مجئيى هنا كنت أفكر برفع قضية ومحاولة استرداد بيت أجدادي منها ولكني الآن أرغب جدًا في ضمها لقلبي للأبد.. أنها رقيقة كزهرة بيضاء صغيرة نادرة الجمال.....»

●●●

الإله الأكثر شعبية !

تعود ريتشارد الظهور في البيت في العاشرة مساءً كل يوم.. حتى كادت يارا أن تضبطت ساعتها على ميعاد ظهوره في البيت فبمجرد ظهوره أمام عينيها تعرف أنها العاشرة.. تعودت الكلام معه حول أشياء كثيرة.. واطمأنت لفكرة أنه شبح عندما اجتمعت بالأشباح الستة وأكدوا لها أنه مثلهم شبح ولكنه لا يراهم لأنهم ماتوا منذ زمن.. أما هو فشبح حديث العهد وله قدرات قليلة.. حتى أحبت يارا أن تنصت له.. رغم اللهجة الكوميدية التي ينطق بها بعض الكلمات العربية عندما يندمج في الحديث.. نظرًا لتعوده الحديث دائمًا بالإنجليزية.. أخبرها أنه دخل السجن في أمريكا عندما أُتهم بقتل زوجته.. وبقى به عام طويل عريض حتى ظهرت براءته.. وأخبرها أن عزاءه الوحيد في سجنه الظالم المظلم كان الكتب.. لقد كانت مكتبة السجن رائعة حقًا.. حتى أنه قرأ عن الإسلام كثيرًا.. عن النبي محمد وعن معانته في نشر دعوته وسط قوم يعبدون الأصنام أو يعبدون آلهة لا وجود لها إلا في أذهانهم.. خلقوها لأنفسهم عبر السنين وقدسوها حد العبادة واعتقدوا في قدرتها على المنع والمنح والعقاب والثواب.. وجهلوا الإله الأكثر شعبية على مر العصور.. وعدل ورحمة.. الواحد القهار...

قرأت أيضًا عن الإمام على بن أبي طالب.. هذا الرجل حقًا حكيم بل يقطر حكمة.. أعلم الآن لما أحبه النبي محمد كل هذا الحب.. له مقولة رائعة.. تشرح التسامح والرقي الذي خلق والذي لازال في علم الغيب.. في سطر ونصف تقول:

«إن للناس أكواخًا من عقائدهم فلا تهدموها عليهم ولكن ابنوا لهم قصورًا، فإذا دخلوها هدموا أكواخهم بأيديهم»

ثم تابع حديثه في لحظة شجن:

«أنا ولدت من جديد بعد أن انشرح قلبي لتلك المقولة.. ما هذه العظمة.. ما هذه القدرة الخرافية على احتواء الآخرين بعقائدهم وأفكارهم وتراثهم وثقافاتهم ؟!!.....»

ثم أخبرها عن مقولات القديس جاستن مارتر، المعروف أيضًا بالقديس جاستن، أو «يوستينوس الشهيد».. ١٠٠ - ١٦٥ م.. والذي كان مدافع مسيحي مبكر.. وقد استُشهِد، جنبًا إلى جنب مع بعض من تلاميذه.. وتم اعتباره قديسًا من قبل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، والكنيسة الأنجليكانية، والكنيسة الأرثوذكسية الشرقية والذي كانت من ضمن كلماته الرائعة:

«كان يوجد هناك.. قبل وقت طويل، رجال معينين أقدم كثيرًا من كل أولئك الفلاسفة المحترمين، صالحين ومحبوبين

من قبل الله، الذين تكلموا بالروح القدس، وتنبؤوا بالأحداث التي ستتم، والتي تجري الآن.. يطلق عليهم الأنبياء، هؤلاء وحدهم رأوا وأعلنوا الحق إلى الناس، لا يبجلون ولا يخافون من أي رجل، غير متأثرين بالرغبة في المجد، ولكن يتحدثون بتلك الأمور وحدها التي شاهدوها والتي سمعوها، مملوئين من الروح القدس.. كتاباتهم لا تزال موجودة، وذلك من يقرأها ستساعد كثيرًا في معرفة بداية ونهاية الأشياء، وفي تلك الأمور التي يجب على الفيلسوف أن يعرفها، شريطة أن يؤمن بها.. فإنهم لم يتحدثوا بالبرهان؛ لأنهم أعلى من كل برهان، إنهم شهود عدول عن الحق، ومستحقين التصديق؛ وتلك الأحداث التي حدثت، وتلك التي تحدث، تجبرك أن تصادق على الكلام الذي أدلوا به، وأيضًا في الواقع، أنهم يستحقون الثقة على حساب من المعجزات التي قاموا بها، لأنهما على حد سواء يمجدون الخالق.. الله !»

أخبرها أيضًا أنه أحب زوجته لأنها كانت بعكس الشرقيات.. طويلة بيضاء.. مهندسة ناجحة.. كانت امرأة لا تقاوم.. وتكسب جيدًا.. هو أيضًا عمل في عدة وظائف.. العمل في أمريكا ليس طبقي كما في الدول العربية.. فليس هناك مهن حقيرة وأخرى مشرفة.. المهم حقًا كم تكسب وهل أنت قادر على الوفاء

بالتزاماتك المادية ؟!.. وبعد ذلك لا يهم.. أخبرها أنه كان يعمل مغني في بار.. ثم موديل في بعض عروض الأزياء.. ثم بائع ورود في محل شهير بالولاية التي كان يقيم بها.. وأخبرها أن سر حبه العظيم لزوجته تحملها له عندما كان يطرد من عمله وتضطر هي لتحمل الانفاق كاملاً على البيت!

وعندما تكلم أكثر.. تعرت أمامي أفكاره وشعرت بالاشمئزاز.. ولكني اكتشفت ما افزعني.. أنى أفكر مثله تمامًا!

نعم لقد تحملت البقاء مع زوجي رغم عيوبه القاتلة لأنه كان قادر على الانفاق.. ولأني أيضًا كنت أحب جسده الضخم الذي يحتوني ليلاً بمنتهى القسوة والعذوبة ولم أفكر لحظة بمستقبل أطفالي مع هكذا أب.. نحن سفلة حقًا.. متعتنا قبل حياة أطفالنا!

فاجأها ريتشارد ذات أمسية رائقة بينهما بعد وضعها لابنتها في سريريرها لتخلد لنوم هنيئًا.. بسؤال عجيب:

«لماذا أنت مسلمة ؟.. بمعنى أكثر وضوح لماذا لا تنتمي لدين آخر ؟.....»

فكرت كثيرًا واحتارت.. لماذا طرح عليها هذا السؤال.. هو مسيحي وهي تعلم هذا.. أو اعتقدت هذا لأن أمه التي

كانت جارتها كانت مسيحية.. هي ظنتها تنتمي إلى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية.. ولكنها تعرف أنها كانت امرأة معتدلة غير متزمتة.. لا تذهب للكنيسة كثيرًا لظروفها الصحية ولكن يارا كانت تلمحها كثيرًا ترفع رأسها وتناجي السماء وتدعو كثيرًا بخيرات بعضها تحقق وبعضها ربما أدخره المولى لزمن آخر وخلود آخر حتى يحققه لها.. وعادت مرة أخرى لسؤاله الذي تاهت عنها إجابته للحظة.. فقالت ما في قلبها وليس الإجابة المعتادة:

«أنا أحب الله كثيرًا.. الحب له وحده حق.. والدين عند الله الإسلام والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده.....»

فصفق لها بكلتا يداه وقال ضاحكًا:

«أنا سأخبرك لماذا أنت مسلمة ؟!.. أنت ورثت الإسلام.. تمامًا كلون بشرتك ولون عينيك من والديك ؟!.. أنت لا تجرئي على التفكر والتدبر والاعتراض.. أليس كذلك ؟!.. أنا لا أشك بحبك لله ولكن أرى منك اعتراض العاقل على بعض الأمور.....»

فقدت أعصابها للحظة وخرجت الكلمات من فمها دون تفكير:

«أنا أحب الله ولكني اعترض على محابة الإسلام للذكور في كل شيء.. في الميراث.. في القوامة.. في الرقي الإنساني حتى.. لا أدري كيف أقول ما في رأسي أكثر دون أن أزيد الطين بلاً.. لا سامحك الله.. لقد أجبرتني على قول ما لا يجب قوله !»

ضحك أكثر وهو يقول:

«أنت تكرهي الرجال.. أليس كذلك ؟!.....»

«صدقني أنا لا أكره الرجال.. إن الرجل أجمل مخلوقات الله فقط لو كان رجلاً!.. لو عاش على الفطرة التي خلقه الله بها من شهامة وجدعنه ومروءة ورغبة في حماية الأضعف منه ومساعدة الآخر.. أما رجال اليوم سفهاء بالمعنى الحرفي.. وسامحني على ثقل رأي بهم.. الرجل في عالمنا العربي يذبح النساء نفسيا ويحطمهن إنسانيًّا بتفسيره الخاطئ لبعض آيات الذكر الحكيم.. فذكر الضرب في القرءان «وَاضْرِبُوهُنَّ».. معناه تجاهل المرأة عند الخلاف معها.. أو خصامها.. ولكن العقلية الذكورية فسرت الكلمة بمعنى الضرب والإيذاء الجسدى.. مع أن المسلم من سلم الناس وليس فقط أهل بيته، من لسانه ويده.. ليتحول الإسلام على يد المضللين إلى دين ذكوري بحت.. فكيف تكون انثى الحيوان مكرمة أكثر من أنثى الإنسان فلم أرى حيوان يضرب أنثاه من قبل لأنه اختلف معها.. بل أراه يرقص لها ويغني أحيانًا أن ود إغرائها

ليتزوجها أو يصارع حيوان آخر ليظهر قوته لها وأنه قادر على حمايتها لو قبلت به زوجًا..

وبمجرد مرض الزوجة أو مرور علامات الزمن على وجهها وضياع شبابها.. يطبق الزوج «فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ».. وخاصة أنه يكون في هذا العمر الذي بلغته زوجته قد جمع القدر الكافي من المال والمنصب وأحيانًا الدرجة العلمية.. وهي صارت عجوز عقيم مصدر دخلها الوحيد هذا الزوج الذي لو غضب عليها وطردها خارج البيت ستنهشها الكلاب حية لأنها لم تدخر شيئًا ليومها القاسي هذا.. وانفقت الصحة والشباب والجمال على زوجها وأولادها وبيتها.. فتقبل بأن يأتي الزوج لها بضرة.. والتي غالبًا تكون فتاة صغيرة.. حتى لا يتم إلقائها في الشارع لو رفضت هذا الوضع المهين.. مع أن تكملة الآية: «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً» !!!

ووقتها تشعر المرأة وتتألم تمامًا كما يشعر الرجل ويتألم عندما يرى زوجته بين أحضان رجل آخر.. فهي إنسان مثله يملك نفس المشاعر والأحاسيس والكرامة والإنسانية والنفس الزكية.. بل بالعكس قانون المجتمع المريض منح حق قتل الزوج لزوجته لو خانته مع غيره مع إن الإسلام لم يأمر بهذا مطلقًا كنوع من العقاب:

«وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً»

ولكن نفس المجتمع يقبل خيانة الزوج لزوجته ويتعامل مع الموقف بصورة كوميدية حتى في الروايات والأعمال الدرامية والمسلسلات والأفلام.. وكأنها نكتة أو مزحة !

وستجد أن الدليل الأهم على تفوق المرأة إنسانيًّا.. إن الله حباها بتربية الأطفال وتعليهم ورعايتهم.. فالرجل لا يملك نصف صبرها ولا قدرتها على التحمل.. فلو تركوا رضيع مع أبيه يومان وظل هذا الرضيع يبكي بلا توقف كما يحدث أحيانًا لألقاه من أقرب نافذة من شدة تعبه وذهب للنوم.. بعكس الأم التي لن ترتاح إلا براحة صغيرها ولو ماتت آلما!

وستجد من يتشدق بتفوق الرجل علميًّا وعمليًّا.. وينسى نفس هذا الرجل أنه من رمى كل أعباء الحياة والبيوت على كاهل المراة ليتفرغ الرجل لتحقيق الإنجازات العلمية والثروة وتحولت هي للجندي المجهول الذي نطلق عليه النار إذا كبر في السن وقل جهده وتضآل حجم الخدمات المقدمة منه!»

فرد عليها ريتشارد:

«كل هذا الوجع يحمله قلبك.. بل إنه أكبر من الوجع.. أنت غاضبة كبركان انفجر في وجه جهل مجتمعه وأهله وناسه.. هل يمكنني أن أعتذر لك نيابة عن أهل الأرض؟!.....»

فدمعت عينيها وقالت:

«لم يعتذر لي أحدًا من قبل.. لم أتعود على سماع كلمات الأسف من الآخرين.....»

عاد للحديث قائلاً:

«الغرب أو الأوربيين أو الرجل الأبيض.. لم يحفلوا برسالة إبراهيم أو دين موسى أو المسيح قبل أن يتم تحوليهم إلى ديانة وثنية بطريقة ما تقدس رموز وأشخاص وأماكن وتحول الرهبان لاله.. ورفضوا تمامًا الإسلام.. ولم يكتفوا بهذا بل حاربوا كل بلدانه.. إن صح تعبيري.. حروب اقتصادية وثقافية وغيرها من أنواع تلك الحروب التي تكون بالوكالة أو بدفع عدوك نفسه ليقضي.. دون أن يدرك.. على نفسه.. بدعم الفكر المتطرف وتنمية الجماعات الإرهابية ونشر الأفكار المغلوطة.. ومساعدة الفاسدين للوصول لكراسي السلطة.. حتى ينتج سامحني في التعبير من هم «مثلك».. الخانفين

والكارهين لمجتمعهم والخجل من دينهم.. أعتذر مرة ثانية.. لا أقصد شخصك بل أقصد المرارة التي تشعري بها عند الحديث عن الدين.. وإليك المصيبة الأعظم.. لقد كان اليهود في حاجة ماسة إلى تاريخ يبشر بغزو فلسطين وإبادة أهلها.. فلجأ المؤرخون التوراتيون إلى كل الوسائل الممكنة من أجل تأويل الآثار التي عثر عليها في فلسطين وفي منطقة الشرق الأوسط لكي تنطق بمعلومات لا تبوح بها لمطابقتها قصرًا بالحدث التوراتي.. لقد خلقوا تاريخًا مزيفًا وقدموه على أنه حقيقة.. وجاء كتبة التراث الإسلامي ومن بعدهم المؤرخون العرب لكي يدعموا هذا التزييف للأسف!!.....»

ابتسمت بمرارة وهي تتحدث إليه بعد لحظات صمت:

«كلما دققت النظر.. اكتشفت اختفاء أصحاب القضايا الشريفة والأفكار النبيلة.. فلم يعد بيننا من البشر من يمكنه دفع حياته مقابل فكرة أو قضية أو حياة إنسان غيره أو حتى حياة ملايين!

أين اختفى النبلاء والجنود الشرفاء والطيبون والصالحون.. أين اختفى الإنسان ؟!.. فالحضارات لم تقم إلا بتضحيات هؤلاء.. إن المثقف في بلادنا ينتظر حتى يقع الطاغية ليصب عليه الآف اللعنات ويتذكر خبله ومكره وتنكيله بالبلاد والعباد

وقبل ذلك السقوط.. لا أسكت الله لك «حس» عزيزي المثقف أو المفكر أو الكاتب أو أي ذي عقل.. فالخوف سيد الأخلاق....»

وابتسمت بمرارة.. فرد عليها:

«أننا نقتل الشرفاء مرة عن عمد ومرة عن جهل.. الله لا يريد من يثبت وجوده.. بل يريد أن نثبت وجودنا نحن.. والوصال مع الله بالقلب ولكن عبادته تستلزم عقل.....»

نظرت له طويلاً ولكنه في لحظة تركها وصعد لغرفته.. علامات التقدم بالعمر.. لم تكن يومًا التجاعيد والشعيرات البيضاء.. إنما حقيقة الأمر هي زيادة اللين والرقة.. سهولة مسامحة الآخرين.. وإدراك أن ما تبقى لم يعد يسمح.. لقد عادت إليه نوبات البكاء التي يعاني منها عندما تختنق الكلمات على لسانه.. إنها حالة نفسية ظهرت عليه أعراضها بعد موت زوجته وهو في السجن.. عندما يختنق يبكي بدلا من طرح ما يدور في ذهنه من كلمات.. وهو الذي لم يعرف تلك الهشاشة النفسية يومًا!

بالكاد وصلت قرب سريرها وهي تجر قدميها جرًا وتحلم بنوم هنيئٍ.. إن النقاش مع ريتشارد ممتع ولكنه مرهق.. النقاش معه يعيدها إنسانة لها عقل يفكر ويطرح الأسئلة ويتأمل ولا

يبالي بالنتائج المترتبة على خطورة الإجابات التي قد تحصل عليها.. ولكنها في النهاية تعود وتطمئن نفسها إن «ريتشارد» ما هو إلا شبحٌ.. شبح مثقف لم يخطر على بالها أن يكون هناك إنسان بهذا الوعي.. إنه يتحدث معها كل ليلة في كل شيء.. المنطق.. الفلسفة.. التاريخ.. الدين وحتى الرياضة والفنون.. إنه أشبه بموسوعة ناطقة في صورة شبه بشرية.. فهو شبح.. عضت على شفتيها الرقيقة عندما تذكرت ذلك.. وتمتمت دون وعي «ليته كان بشرًا».. لقد حكى لها عن الملكة حتشبسوت وعن جمال حضارة المرأة المصرية وتاريخها المشرف على مر العصور.. فقد أخبرها عن كفاحها.. فلم يكن الطريق ممهدًا أمام حتشبسوت.. ومفروشًا بالورود كي تصل إلى الحكم.. فقد واجهت بكل إصرار وعناد مجتمعًا وسلطة دينية ذكورية.. أبت أن ترى الحاكم إلا في صورة رجل!

وهنا تمتمت مغتاظة بينها وبين نفسها: «تبأ للرجال على مر العصور».. ثم عادت تهمس بقلبها «تبأ لجميع الرجال ماعدا.. ريتشارد!»

أخبرها أن الملكة حتشبسوت بدأت وقتًا عصيبًا من حياتها وهي في عمر العشرين، عند وفاة والدها (تحوتمس الأول)، فقد كانت من قبل شريكة مع أبيها في الحكم، والوريثة الشرعية

للعرش؛ لذا فإنه كان من المعقول أن تكون هي الفرعون الذي يلي تحوتمس الأول على العرش.. لكن تقاليد البلاط ودسائس الكهنة بدأت تتدخل في الأمور لأن فكرة حكم امرأة ووضع جميع السلطات في يدها كان أمرًا على غير هواهم ؛ لهذا السبب كان من المحتم أن يشرك معها أخوها غير الشقيق (تحوتمس الثاني) في الحكم، ذاك الشخص النحيل واهن الصحة، قليل الخبرة بإدارة شؤون البلاد والعباد.. وأن يكون شريكًا معها في الملك كفرعون للبلاد، بينما تصبح هي زوجة ملكية لا أكثر من هذا..

ولم يكن هناك فائدة ترجي من وراء الاحتجاج، فقد كانت كل الظروف ضدها.. وبدأوا يعدون لزواجها من تحوتمس الثاني وبهذا حصل تحوتمس الثاني على شرعية الحكم.. وليس معروف إلا القليل عن فترة حكمه قصيرة المدة.. اللهم إلا ثورة قامت في الجنوب.. ولكنه، بدلاً من أن يقود الجيش بنفسه ويسير إلى الأعداء كما كان يفعل أبوه، أعطى تعليماته لجنوده أن يكونوا قساة لأبعد درجة عن الخارجين عن حكمه..

كان تحوتمس الثاني شخصًا ضعيفًا وربما كان مريضًا في نفس الوقت، وكانت في الحقيقة حتشبسوت هي التي تدير أمور الدولة، وتحكم البلاد باِسمه من وراء ستار، وكانت صاحبة

الأمـر والنهـي، وبعـد وقـت قصيـر أصبـح واضحًـا أنـه سـائر في طريـق المـوت، وأخـذ رجـال البـلاط وكبـار الموظفـين يتسـاءلون مـا الـذي سـيحدث عندمـا يمـوت ؟.. لـم يكـن هنـاك أميـر آخـر يسـتطيع أن يخلفـه علـى العـرش، كمـا لـو أنهـا سـتحكم البـلاد في النهايـة بمفردهـا، بينمـا سُـر أصدقاؤهـا الذيـن يعرفـون قدرتهـا وقوتهـا مـن هـذه الفكـرة، وكانـوا علـى أتم اسـتعداد ليخدموهـا بإخـلاص عندمـا يحـين الوقـت..

لكـن زوجهـا (تحوتمـس الثانـي) كان يريـد أن يمنـح ابنـه (تحوتمس الثالـث)، حـق تولـي العـرش مـن بعـده، وقـد كان هنـاك شـخصًا يدبـر المؤامـرات مـع معبـد آمـون بالكرنـك، مثيـرًا الشـعور العـام بـين الكهنـة والنـاس ضـد فكـرة قيـام امـرأة بحكمهـم، وقـد كان هـذا الشـخص هـو (تحوتمـس الثالـث) نفسـه، الـذي كان يعيـش في المعبـد كأحـد كهنتـه!

لقـد مـات تحوتمـس الثانـي عـام ١٥٠١ قبـل الميـلاد، وفي أحـد الأيـام بعـد موتـه بوقـتٍ قصيـر، وعندمـا كانـت حتشبسـوت في المعبـد لتشـهد احتفـالاً يخـرج فيـه موكـب الإلـه آمـون، وقفـت المحفـة التـي كانـت تحمـل تمثـال (آمـون)، أمـام كاهـن صغيـر، وأبـت أن تتزحـزح بعـد ذلـك، ووافـق جميـع الحاضريـن علـى أن مـا حـدث ليـس إلا علامـة بـأن آمـون قـد اختـاره ليشـاركها الحكـم!

وقد كان هذا الكاهن الذي وقفت محفة (آمون) أمامه، هو (تحوتمس الثالث) ابن زوجها المتوفى!

وفي اليوم الثالث من شهر مايو ١٥٠١ قبل الميلاد، ترك تحوتمس عمله كأحد صغار الكهنة في معبد آمون، ليدخل القصر الملكي.. وقد كان عمر حتشبسوت في ذلك الوقت أربعًا وثلاثين سنة، ومنذ اليوم الأول وسادت بينهم المنافسة والمرارة، ولم تلبث حتشبسوت إلا وأن جمعت حولها مناصرين وكونت حزبًا مناصرًا لها، ولم يلبث هذا الحزب إلا وقتًا قليلاً حتى اشتد نفوذه، وأصبح قويًّا لدرجة أن الفرعون الذي لم تكن لديه الخبرة الكافية أصبح عاجزًا عجزًا تامًا عن حكم البلاد، واضطر لإخلاء المكان لحتشبسوت.

وأخيرًا تم إعلان حتشبسوت في عام ١٤٠٤ قبل الميلاد، ملكة على الصعيد والدلتا، وحكمت مصر وممتلكاتها في الخارج وحدها كفرعون..

ويقدر المؤرخ المصري القديم (مانيتون)، فترة حكمها بـ ٢١ سنة، وتسعة أشهر..

وقد يثار هنا تساؤل ماذا فعلت حتشبسوت بتحوتمس الثالث، بعد أن أطاحت به، وقد يظن البعض أنها قتلته أو نفته لمكانٍ

بعيدٍ عن مصر.. لكن الحقيقة أنها عهدت إلى تربية وتعليم هذا الفرعون الذي كان قبل ذلك كاهنًا صغيرًا في السن تربية عسكرية، وعلمته فنون إدارة الدولة، ليقود بعض الحملات العسكرية ضد الثائرين على الحكم المصري خارج البلاد في أوآخر حكمها، وقد تولى الحكم بعد موتها، بعد زواجه من ابنتها (مريت رع حتشبسوت)، مما أعطى له شرعية الحكم !

ابتسمت وهي تكاد تستلم لغيبوبة ملائكية تأخذها بعيدا عن واقعها المؤلم.. تفصلها قليلا عن مأساة موت طفلها وتحطم بيتها وغربتها عن الحياة بأسرها التي اورثتها حالة من الخمول وفقد الشغف وفقد لذة أي شيء كان يجلب لها السعادة سابقًا.. واتسعت ابتسامتها وهي تتذكر ريتشارد وهو يحكي عن الملكة حتشبسوت وعظمتها وكأنها أمه شخصيًّا.. فلم يعد في زماننا هذا من يتذكر أدق تفاصيل تاريخ بلده ك «ريتشارد».. انه واقع كليا في غرام الملكة المتوفاه منذ الألف السنين...

في الظلام كان هناك شيء يلمع.. وكأنه حجر أسود صغير مضيء بطريقة ما.. وعندما أطالت النظر اقترب منها ظل طويل.. لم تشعر بالخوف فلم يعد هناك شيء يمكنه أن يخيفها بعد حياتها مع الأشباح في بيت مهجور بعيدًا عن

العمران.. ولكن قطع الصمت ضحكة فارس التي تحفظها عن ظهر قلب.. واتضح أنها عينيه هي التي تبرق في الظلام !

وفي غمضة عين تحول المشهد للآتي..

قاعة محكمة.. قاضي.. مستشارين.. بعض من رجال الشرطة.. وبعض الحضور.. وقفص حديدي.. به سجين.. ولكن القفص الحديدي مبطن بالزجاج.. حيث السجين المسكين يمكنه أن يسمع ما يدور في قاعة المحكمة ولكن صوته إذا تكلم لا يصل إلى أحد.. فلا أحد يسمح له بالكلمة.. إنه يسمع اتهامات شنيعة موجهة إليه لم يرتكب منها شيء.. إنه يختنق بالكلمات ولا ينطقها.. فكيف ينطق بأسرار بلده ولو حتى دفاعًا عن حياته.. لقد طلب محاكمة عادلة ذات خصوصية أمام قضاه آخرين حفاظًا على تلك الأسرار الغالية ولكن الطغاة عمدًا لم يستجيبوا وصموا أذنهم عن مطالبه التي هدفها فقط حماية بلده وأسرارها..

وجهه أصفر،، صفرة المرض والحسرة وكسرة الخاطر وليس هناك من يلتفت لكل هذا الوجع الذي يأكله ويخنق ما تبقى من أنفاسه الطاهرة.. نبضات قلبه ما بين السرعة الشديدة أو البطئ المميت.. كان يشبه رجال الريف الطيبين.. يرتدي ابتسامته حتى في وجه جلاده.. يعلم ما يقول ويعلم

أنه لا أحد سينصت لما سيقول.. يشم رائحة الدم وليس بيده المغلولة حيلة.. يبكي قلبه وقدميه تجاهد لتحمله حتى لا يقع أرضا.. وهي تتأمله وهو يهمس:

«لا تقتلوا أسود بلادكم.. فتأكلكم كلاب أعدائكم.. بلادي وإن جارت على عزيزة.. وأهلى وإن ضنوا علي كرام» !

وكأن هناك شاشة تعرض حياة هذا الرجل.. من طفل يسعى بين الحقول الفسيحة الخضراء إلى استاذ جامعي إلى سلطان مقهور يحكم شعب أغلبه مغيب.. إلى رجل مات قهرًا...

لدقائق ظلت تتأمله من خلف قفصه الذي تحول لقبره عندما وقع على الأرض وأعلن حارسه أنه قد مات.. ذهب إلى غير رجعة من بلاد الظلم والقهر إلى حيث لا ظلم.. لا قهر.. لا تلفيق تهم وإدعاءات كاذبة.. وعلى المتضرر اللجوء إلى الله..

وقع هذا الشيخ المريض أرضًا.. وحتى وهو ميت كان القاضي لازال يصرخ في وجهه ووجه الحاضرين وينطق بأكاذيب هو نفسه يعلم كذبها وحجم افترائها ولكنه مأمور ومأجور ليفعل فعلته.. وهنا أعادها فارس مرة أخرى لحجرتها وهو يهمس في أذنها:

«لقد لحق به ابنه وهو شاب عشريني.. جميل الملامح.. طاهر القلب فقط بعد ثمانين يومًا من موته.. ليجمعهما الله حيث لا فراق.. لا تقولي مرة أخرى أين اختفى الشرفاء والطيبين.. أنهم خلف الأسوار يتم اغتيالهم معنويًّا وإنسانيًّا حتى يتوافهم الله أو يجعل لهم سبيلاً»

دمعت عينيها ولكن هذا الرجل مكانه السماء حيث لا ظلم ولا افتراء ولا تشويه سمعة بالباطل.. هكذا خطر على بالها لحظتها.. فالموت تحول لمخرج الطورائ الوحيد للمظلومين والمستضعفين في بلاد القهر والظلم.. وبالرغم من هول هذا المشهد المهيب..

تذكرت قصة الخليفة الذي قتله أهله وبكى عليه أعدائه:

فقد استطاع الخليفة العادل الراشد عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن يحقق العدالة الاجتماعية في أقل من عامين، حتى أنه ليطاف بالزكاة فلا يجد من يأخذها، مما اضطر بعدها شياطين الإنس من دس السم له في الطعام، فمات مسمومًا.

وعندما وصل نبأ موته إلى ملك الروم «ليو الثالث» بكى بكاءً شديدًا أذهل الحاشية والأساقفة، فسألوه عن ذلك، فأجابهم: مات والله رجل عادل، ليس لعدله مثيل، وليس ينبغي

أن يعجب الناس لراهب ترك الدنيا؛ ليعبد الله في صومعته، إنما العجبُ لهذا الذي أتته الدنيا حتى أناخت عند قدمه، فأعرض عنها..

في الصباح استيقظت يارا في كامل نشاطها.. ولأول مرة منذ شهور طويلة وحزينة اكتشفت أنها راضية ومطمئنة.. وهو إحساس أروع حتى من الإحساس بالسعادة.. فالسعادة قد تدوم لحظة أو ساعة أو حتى يوم.. أما الرضى فهو القدرة على الصبر الجميل أو اللطف الذي يمن به الله علينا عند مصائبنا..

وقفت على مسرح الحياة

لا أطمع في دور البطولة

إنها للمحاربين والعاشقين

وأنا بيني وبين أحلامي

ما بين الشباب وأوجاع الكهولة

شربت من نهر الإنسانية

فوقعت في.. العشق

كانجذاب الفراش للنار بكل سهولة

ثم أفاقتنى عاصفة على

ضربة مميتة من..

ذراع ذي عضلات مفتولة!

وتحت المطر وحدي رقصت

بعد علمي أن حديقتي تحطمت

ولم تعد بالورود.. مأهولة!

ولكني سأزرع قلبي وعقلي

مرة أخرى.. في كيان آخر

وسأكون عن سعادتي.. مسئولة

سأكون زهرة زرقاء

أو سحابة بيضاء

أو حتى مهرة حمقاء

ولكني لن أكون مجرد قصة

حزينة.. من كتاب ممزق، منقولة!

سأعود للحياة طفلة

فستانها ريحان وياسمين

وتنام ملء جفونها في القيلولة.

سأكون شمسًا لا تغيب

فكلما نظرت للمرأة عرفت

أني المنتظرة وأحزاني صارت مقتولة !

●●●

رق نفسي

«نحن حاليًّا لا نحتاج صديق أو حبيب.. إننا نطمع بشيء مستحيل ليشفي الوجع ويعود صفاء القلب.. إننا نطمع بقلب أم.. ولكن هل تعود الأمهات من السموات ؟.. أو حتى ترسل السماء حبيب بقلب أم ؟!.. يقولون أنك لا تعرف إنسانًا جيدًا إلا بعد أن تعاشره فترة كافية.. ولكن هل هذا حقيقي؟!.. فغالبا يفاجأنا الآخرين بتصرفات غير متوقعة.. فقد يخذلنا أعز حبيب في موقف ما ويكرمنا شخص غير متوقع منه النبل والسند وقت الحاجة.. وغالبًا من جفاك أطلقك ووفر عليك مشقة رد الجميل وحررك من رق نفسي مصدره أنك مدين بالحب والإخلاص وتحمل ما تكره نفسك من أجله.. فقط لأنك تحبه..»

تركت يارا القلم من يدها وتوقفت عن الكتابة عندما شعرت بوجود شخص معها في حجرتها يتأملها من الخلف حيث كانت تجلس على سريرها وبجانبها ابنتها المشغولة بنتف شعر دمية في يدها أعطتها لها أمها لتلتهي بها حتى تكتب سطور تلك الخاطرة التي لم تكتمل بدخول ريتشارد عليها.. أنها عادتها القديمة.. أن تفرغ طاقة أحزانها في الكتابة.. التي توقفت عنها بعد أن سخر منها زوجها أكثر من مرة عندما لمحها تكتب.. لقد كانت تكتب دائمًا قبل زواجها ما يتعبها أو يقلقها ثم تمزق الورقة أو تحتفظ بها في درج بعيد عن يدها

ولكنها توقفت بعد زواجها وصارت عاجزة عن التعبير عن مشاعرها ولو حتى بكلمات وجمل سريالية سوف يتم التخلص منها في لحظتها..

وتعجبت من ظهور ريتشارد نهارًا.. لقد عودها الظهور ليلاً فقط.. ولكنها عادت لتأكد لنفسها أنه لا يهم متى يظهر «ريتشارد».. إنه شبح مسلي.. حديثه ممتع.. ويعطيها مال.. شكله جميل وجذاب.. إنه بعكس فارس جده.. له عطر فريد يملئ المكان بمجرد ظهوره.. وابتسمت يارا لريتشارد وهي تهمس له دون خجل:

«أنت النسخة المستحيلة لأحلامي»

تأملها ريتشارد لحظات قبل أن يستوعب معنى ما قالت.. ورقة ما صرحت به ورد عليها:

«سأخبرك سرًا.. أنا جئت هنا لطردك من البيت.. ولكني.....»

وسكت ولكن عينيه أكملت: «احببتك»

كيف يمكن لنظرة عين من شبح ل «يارا» أن تربكها لهذه الدرجة.. ولكن هذا ما حدث.. فعاد ريتشارد إلى الحديث معها:

«لقد أحضرت لك شيئًا ....»

وأخرج ما كان يخبئه خلف ظهره.. إنه فستان.. أحمر اللون من الدانتيل الشفاف المطرز ومن تحته جيب من نفس اللون صنعت من قماش ناعم حريري.. أنه فستان جميل وغالي الثمن ولكن يارا لم تتعجب كثيرًا فهي لا زالت تظن هذا الرجل مكتمل الرجولة الذي أمامها مجرد شبح لرجل ميت!

تركت الأوراق التي كانت تكتب بها على السرير بجانب ابنتها ووقفت بجانب ريتشارد، ثم دون كلمة شكر حتى.. استولت على الفستان من بين يديه ووضعته على جسدها الرشيق وظلت تدور به في الحجرة وهي تضحك كطفلة تحتفل بثوب العيد الذي تأخر عليها كثيرًا ولكنه في الآخير أتى.. أخيرًا أتى.. كانت تدور حوله في حركات راقصة وهي تقطر مرح ونشاط وخفة وكل شيء جميل وبديع يوحي بتوهجها.. لقد أضاء شيء بداخلها هي لا تعلمه.. أشعل حماسها لأن تبتسم وهي حقًا خالية من الوجع.. هناك شيء تم إصلاحه بها على يد ريتشارد.. أمل ما اتضح.. ابتسامة غائبة عادت.. نبض في قلبها استيقظ.. هي لا تدري.. هي فقط سعيدة ومتصالحة مع نفسها.. متصالحة حتى مع ماضيها ووجعها!

ملأت الفرحة قلب ريتشارد لرؤيتها ترقص كالفراشة حوله.. أنه منذ زمن لم يشعر بتلك السعادة.. وغادرها سريعًا.. عليه الذهاب لابنته التي تركها عند أقاربه منذ أقام مع يارا.. فابنته كانت في غاية المرض والضعف وزوجة ابن خاله كانت طيبة القلب وقبلت بكل ود وترحاب الاعتناء بصغيرته المريضة.. وكان ريتشارد كل يوم يذهب إليهم ويمكث مع ابنته حتى تخلد للنوم ليلاً.. ثم يعود مسرعًا ل «يارا» التي تظنه شبحًا فيتحدث معها حتى الساعات الأولى من الصباح ثم ينام قليلاً ويستيقظ مبكرًا لرؤية ابنته والبقاء بجانب فراشها...

في غياب ريتشارد قررت إعادة ترتيب البيت قليلاً.. ولكن الأثاث قديم وثقيل وهي وحدها ضعيفة البنيان.. وعندما شاهد فارس وضياء يارا منهمكة في نقل أريكة كبيرة وثقيلة.. انفجر فارس بالضحك وسخر منها:

«اعتر في بفضل الرجال في هذا الكوكب وسوف أنقل لك كل شيء في غمضة عين.. لقد سمعت حديثك مع ريتشارد وعلمت مدى كرهك لنا معشر الرجال.. هيا اعتذري عما بدر منك تجاهنا نحن ملائكة الأرض.....»

ونظر لها بخبث وابتسامة ماكرة تداعب شفتاه.. وفكرت في نفسها:

«يا إلهي كم يشبه ريتشارد ؟!....»

ولكنها قررت العبث معه قليلاً وقالت:

«انقل معي الأثاث وأعدك أن تسمع مني قصائد شعر عن الرجل المصري الطيب الكريم النبيل ال.....»

وضع فارس إصبعه على فمها حتى لا تكمل.. فهو يعلم أنها تسخر منه وتنافقه في آن واحدٍ ومع ذلك في غمضة عين طرق بأصابعه.. فأصبحت كل قطعة اثاث في المكان الذي تريده يارا تمامًا.. وصار البيت نظيف يبرق كل سنتيمتر به.. وكأن عشرة رجال اعتنوا بنظافته.. كل الأتربة والأوساخ اختفت.. وكل شيء مرتب ومكانه.. حتى رائحة البيت تحولت لعطر ورد منعش مبهج.. فقالت لها ناهد بابتسامة حانية:

«الآن دورك ياحلوتي.. اصعدي إلى فوق وتحممي وضعي أحمر شفاه وارتدي فستان جميل.. كوني أنثى هذه الليلة.....»

وغمزت لها بعينها.. لم تفهم يارا مقصد ناهد ولكنها فعلت ما طلبت وخاصة أنها اطمأنت من انتهاء المهام التي كانت تحلم بانجازها.. فهي لم تتوقع أن يساعدها فارس بهذا الشكل.. وتسآلت وهي تحت صنبور المياة.. ما الدفع وراء تغير معاملة فارس لها ؟.. لقد توقف حتى عن طردها من البيت..

لقد كان يطلب منها مغادرة البيت كل خمس دقائق وعذبها بالهلاوس والكوابيس حتى كادت تفقد عقلها واتزانها.. أو ربما تكون قد فقدتهما على يديه.. وعادت تبتسم وهي تستمتع بإحساسها بالمياة باردة على بشرتها الرقيقة...

تعود ريتشارد فتح باب البيت بالنسخة الأخرى من المفاتيح التي وجدها بين أغراض أمه بالمصادفة وكانت تلك النسخة داخل ظرف معه ورقة صغيرة تفيد أن هذه المفاتيح تخص بيت «الفيوم».. وهكذا كان يدخل ويخرج، ريتشارد من البيت دون أن تشعر يارا به.. فهي بينها وبين نفسها تعتبره شبح يخترق الحوائط والأبواب.. وحتى الأسوار.. وقلبها!.. وتطلب منه ما تشاء وقتما تشاء دون خجل.. تتناقش معه في أي شيء وكل شيء.. تظنه «طيف» أو روح طيبة.. لا تخجل حتى لو دخل عليها حجرتها وهي نائمة.. فهل هناك عاقل قد يخجل من شبح أو روح بلا جسد ؟!

لمسات من الكحل وأحمر الشفاه وبعض العطر وفستانها الأحمر الجديد وتحولت يارا لنجمة سينمائية يليق بها العبور على السجادة الحمراء كنجوم السينما العالميين..

«فاتنة.. رائعة.. مبهجة.. لا يمكن وصفك بأقل من هذا هذه الليلة.. إنها حقًا ليلة جميلة وأنت قمرها بلا منازع.....»

حتى كلمات الغزل من شبح تجعل الوجه يحمر..

فتابع ريتشارد:

«أنا أحلم بأن أرقص معك الآن.. دقيقة وسأعود.....»

اختفى ريتشارد لدقيقة من أمام عينيها وعاد مسرعًا يحمل جهاز كانت تراه للمرة الأولى في حياتها ولكنه كان يصدر موسيقى حالمة تفرح القلب وتأسر الوجدان..

ومد يده لها في صورة استعراضية وقلبه منحنى لها قبل جسده قائلاً:

«أيتها الأنثى الاستثنائية.. هل تسمحي بالرقص مع شبح متواضع فقير مثلي؟!.. المسني واقبضي على يدي ولا تخافي.. أنا لا أعض الجميلات أمثالك....»

ضحكت من كل قلبها وهي تمسك بيده وتعجبت أن يده بين يديها لها ملمس ووجود اليد الحقيقية أو اليد التي تخص إنسان على قيد الحياة.. ولكن ربما ذلك خدعة من خدع فارس لعقلها.. فنحن معشر البشر الآن وصلنا لاختراعات تجعلك تشعر بما ليس له وجود وتلمس أيضًا وربما تتذوق.. فما بالنا بالأشباح وقدراتهم ؟!.. ربما هذا من تدبير فارس وناهد وضياء وربما اشترك معهم في اللعبة ريتا والسيد جوفاني..

بعد أقل من دقيقتين كانت تعج رأسي بضجيج مبهج !

حيث هناك في زاوية رأسي امرأة صعيدية ليست بالنحيلة وليست بالبدينة.. بل كاملة الجمال والحسن والدلال.. تجلس وسط مجموعة صبايا ملاح.. تدق طبول الفرح والبهجة بكل حماس لعروس صغير جمعتها الدنيا أخيرًا في عرس مع حب قلبها البريء.. هذه السيدة البديعة الضاحكة، كل ملامحها الفاتنة تكاد ترقص.. وهي تدق على كل ما يصل ليدها البضة الناعمة من طبول.. وكأنها تعلن للعالم اجمع «حي على الفرح.. حي على الحياة»...

فكرت يارا.. لماذا هي الآن سعيدة هكذا ؟!.. كيف أشرقت وكأنها لم تعرف الحزن يومًا.. وكأن هذا الرجل طاقة نور أشعلت بداخلها شموس مجرة حزينة ميتة.. لقد اعتقدت أنها أحبت زوجها يومًا حتى إنها عندما خطبت له قطعت علاقتها بأقرب صديقة لها خوفًا من أن يقابلها خطيبها الذي تحول فيما بعد لزوجها.. ويعجب بها ويتركها.. تذكرت وهي تفتعل مشكلة وهمية مع تلك الصديقة.. التي لم ترى يومًا منها.. سوى الخير والوفاء حتى تختفي من حياتها للأبد.. لقد تعمدت يارا أن تجرح كرامتها وتهينها وتطردها من بيتها حتى لا تزورها مرة أخرى حتى لا تقابل فارس أحلام يارا وقتها الذي حول لاحقًا كل أحلام يارا

الوردية عن الحب والزواج لكوابيس بشعة.. نعم صديقتها كانت جميلة وغير متزوجة أو حتى مخطوبة وقتها.. هل هذا مبرر لما فعلته بها ؟!.. وفكرت أنها لو وثقت في نفسها وقتها ووثقت أن قدرها لن يناله غيرها لكانت صديقتها الآن بجانبها تساندها في أوجاعها القاسية.. ثم ان الذي يهجرها من اجل اخرى خيرا له ان يفعلها وهما لازالا على البر في مرحلة الخطوبة.. واعتصر قلب يارا عندما اكتشفت إنها في النهاية أيضًا أصبحت بلا رجل.. ولكن شيء ما بداخلها ابتسم وصوت همس لها «لا يهم».. لن يغير حياتك للأفضل سواك!

قد تكون الأحلام هي الصيانة الدورية لأرواحنا.. ولذا غرقت يارا في لحظات السعادة التي حظيت بها في رقصها الطفولي المرح مع ريتشارد.. أنها لم ترقص من قبل سوى ليلة زفافها.. رقصة وحيدة يتيمة عجفاء وانتهت بأن داس زوجها على قدمها حتى كادت تصرخ في وجهه ولكنها تمالكت نفسها وانتهى الموقف بدموع ألم محبوسة في عينيها كغزال جريح أصابه صياد أحمق...

انتشلها ريتشارد بصوته الطيب من أفكارها.. قائلاً:

«منذ سنوات شاهدت فيلم أجنبي.. كان بطله إنسان آلي مصنوع في صورة طفل.. أحداث الفيلم كانت تدور في المستقبل عن

الـذكاء الصناعـي وصناعـة إنسـان آلـي لـه مشـاعر تحاكـي مشـاعر وأحاسـيس البشـر.. وكان هنـاك أسـرة طفلهـا مريـض وتقريبًـا يحتضـر.. فقـرروا شـراء طفـل آلـي لـه مشـاعر طفـل حقيقـي.. وفعـلاً هـذا الطفـل الآلـى أحـب الأب والأم للغايـة وتعلـق بهمـا كأنهمـا والـداه الحقيقـين.. وبعـد فتـرة قصيـرة شـفي الابـن الحقيقـي للوالديـن وعـاد البيـت ولكنـه كان دائمًـا هنـاك صـراع خفـي بـين الطفلـين الحقيقـي والآلـي.. ولكـن الأم لاحظـت ذلـك واتفقـت مـع الأب علـى التخلـص مـن الطفـل الآلـي معتبـرة أنـه لا يزيـد عـن دميـة قديمـة لا قيمـة لهـا الآن.. وتم فعـلا التخلـص منـه في مـكان نائـي بعيـدًا عـن البيـت.. وظـل هـذا الطفـل الآلـى يشـعر بالوحـدة والمهانـة والنبـذ كأي طفـل حقيقـي تخلـت عنـه أسـرته.. وكان كل حلمـه أن يعـود مـرة ثانيـة لبيتـه ولأسـرته ولحضـن أمـه بـأي شـكل.. وطـوال أحـداث الفيلـم وهـو كان يبحـث عـن شـيء واحـدٍ.. عـن يـوم يقضيـه مـع أمـه.. ويمـر الزمـن كالبـرق ويـكاد ينتهـي العالـم.. ويسـتقر بـه الحـال مهمـل داخـل غواصـة غارقـة في المحيـط ويتـم العثـور عليـه مـن قبـل مخلوقـات تشـبه البشـر لكنهـا ليسـت بشـر.. ويتعرفـون علـى قصتـه الحزينـة ويقـدرون حجـم الفقـد الـذي عانـى منـه هـذا الطفـل الآلـى ويكـون قراراهـم، تعويضـه بـأيـة طريقـة ترضيـه.. فيكـون طلبـه الوحيـد منهـم «ليلـة».. أو يـوم كامـل يقضيـه مـع أمـه التـي يحمـل لهـا منـذ زمـن خصلـة مـن شـعرها في علبـة صغيـرة في جيبـه دائمًـا.. وفعـلاً هـذه المخلوقـات النبيلـة

تكون متقدمة جداً في الهندسة الوراثية وتقوم باستنساخ أمه.. ولكن عمرها لن يكون أكثر من يوم وبعدها ستموت..

وفعلا تنفذ هذه المخلوقات وعدها له بصنع بيت كبيته وداخله أمه ويقضي معها يومًا كاملاً.. و في نهاية هذا اليوم.. الرائع والخالد من وجه نظر الطفل الآلي.. يكون الطفل مكتفي أنه ودعها وأثبت لها حبه الكبير.. أنا الآن أشعر بما شعر به هذا الطفل يا «يارا»، لقد كنت أنوي العودة لأمي ولكني عدت بعد فوات الآوان.. ولكني معك أشعر بتلك الطمأنينة التي لم أعرفها إلا في حضرة أمي.. أشكرك.....»

دمعت عيني كلا منهما.. يارا وريتشارد..

عندما دخل ريتشارد الإسلام بعد أن قرأ عنه في سجنه.. أخفى عن الجميع النور الذي تسرب لقلبه.. هو يعلم أن ما بين العبد وربه سر القلب وحده.. العقلاء يرددون هذا في أمريكا وأوروبا.. ولكن عندما أحب يارا هذا النور تحول لراحة بال وشيء سماوي طاهر يتجول برفق داخل كيانه.. يعطيه قوة وطاقة وقدرة على التحليق إلى الجنة في لحظات.. وتمتم لنفسه:

«سأتزوجها.. وسأعلن للجميع ما أنا عليه!»

بعض الديانات تعتبر الرقص نوع من العبادة.. فرقصتها مع ريتشارد لم تكن رقصة امرأة بين ذراعَي رجل.. بل شيء آخر.. أقرب ما يكون لرقصة المولوية التي أحيانًا يمارسها متصوف او فنان رغبة منه في الوصول إلى أرقى مرتبة في السماء رغم قدميه المشدودتين إلى الأرض.. ولاحظ ريتشارد صفاء روحها في تلك اللحظة وتوقفت أغنية فيروز الرائعة.. فظلت يارا تردد كلماتها وتدور في حلقات حول ريتشارد الذي كان يتابعها بالقلب قبل العين:

«يا أنا.. يا أنا.. أنا وياك.. صرنا القصص الغريبة..

يا أنا.. يا أنا.. أنا وياك.. وانسرقت مكاتيبي..

وعرفوا إنك حبيبي.. وعرفوا إنك حبيبي..

يا أنا.. يا أنا.. هرب الصيف.. هربت عناقيد الزينة..

وإذا ضيعني الهوى شي صيف.. بقلبك بتلاقيني..

وخبيني ولا تخبيني.. خبيني ولا تخبيني..

لياليك.. بعينيّ.. شبابيك مضويّة..

سفّرني حبيبي.. سفرني بلياليك..

وأنا أقول لا تنسى.. على طول.. لا تنسى..

وعيونك تاخدني.. وتوعدني بلياليك..

لياليك..

تركوا.. تركوا.. سهر البال.. والعاشق لم جناحه..

تركوا أساميهن ع الباب.. على كتب الدمع.. وراحوا..

نسيوا بعضن وارتاحوا..

نسيوا بعضن وارتاحوا..

يا أنا.. يا أنا.. يا أنا.. يا أنا.. يا أنا.. يا أنا..

أنا ويّاك.....»

ظلت تغني وترقص حتى وقعت بعد أن اصطدمت ب «ريتشارد» الذي وقع بجانبها وكله بهجة.. ففي حالتهما كان السقوط لأعلى.. لأعلى درجة من العشق والتحليق لسموات وردية حالمة.. ولذا قرر هو انتهاز الفرصة الذهبية للكلام معها عليها أن تفيق من خيالاتها وتفهم أنه ليس بشبح.. هو يشفق عليها ولأنه علم من بواب العمارة التي كانت تقطنها أمه ويارا.. مأساة موت ولدها وطلاقها من زوجها وسجن زوجها فهو يقدر تمامًا الأزمة النفسية التي قد تكون دفعتها للهلوسة وتخيله شبح.. ولكنه أحبها وجعلها تحبه بعد أن أحبت حكاياته

وثقافته الواسعة.. وأحبت طيبة قلبه التي خصها بها.. ضحك معها على وقوعهما أرضًا ثم قال لها بنبرة متوسلة:

«لي رجاء عندك.....»

فقالت ضاحكة:

«أنت شبحي الطيب الذي يعطني مال وهدايا ويحكي لى كل ليلة حكاية أروع من حواديت ألف ليلة وليلة ويناقشني في الأدب والتاريخ والسياسة والفن وحتى الموضة.. يمكنك أن تطلب ما تشاء أنا أحبك حقًا.....»

فاتسعت ابتسامته ورد عليها:

«وأنا أحبك أكثر يا «يارا».. أراك هدية من الله لي.. ولكني أرجوك أن تسمحي لي بأن أحضر ابنتي لتعيش هنا معي.. هي صغيرة وبعد موت أمها لم يعد لها غيري.. وأنا سأعطيكي مال إضافي زيادة كإيجار لسكننا هنا.....»

اتسعت حدقتا يارا ولم تدري ما تقول.. فهل ابنته هي أيضًا شبح أم فتاة حقيقية على قيد الحياة ؟!.. وهل سيحتمل البيت المزيد من الأشباح والأرواح والأطياف ؟!.. ألا يكفيها أنها تعيش مع ستة أشباح و «ريتشارد» سابعهم !!

فسألته مسرعة:

«هل ابنتك شبح أم على قيد الحياة ؟؟.....»

فرد ريتشارد:

«طبعًا على قيد الحياة.....»

ثم تمتم بالإنجليزية دون وعي منه:

«May the Lord bless her and keep her»....

فعادت تطرح عليه سؤال آخر:

«وكيف ستأتي بها ؟.....»

فأجابها:

«لا تقلقي.. فالصباح ستكون هنا.. فقط أتمنى أن ترى منك بعض الحنان.. أرجوك.....»

ذهبت إلى سريرها لتحتضن ابنتها وتنام.. إنها متشوقة لقدوم الصباح برفقة ريتشارد ورؤية ابنته.. ربما تكون ابنته هي العوض الجميل لطفلها المتوفى.. فتلك الطفلة اليتيمة ستكون تحت رعايتها الكاملة وخاصة أن والدها مجرد شبح!.. ولكن الهرج والمرج الذي عم حول البيت بعد قليل.. كان غريب

على مسامع يارا.. فالبيت في مكان مهجور وبعيد عن العمران لا يسكنه سواها وبعض الأشباح.. ووصل لأنفها المزكوم رائحة «كيروسين» و «بنزين».. وأصوات رجال عالية.. ثم بدأت أصوات حجارة تصطدم بالبيت وكأن هناك شياطين ترجم البيت بالحجارة وتخبط على أبوابه بالعصي الغليظة.. فانتفضت يارا من سريرها كمن لدغها عقرب لترى من نافذة حجرتها أكبر تجمع بشري رأته في حياتها.. وكأنها ثورة شيطانية علي وضع ما.. من هؤلاء ؟! وماذا يريدون منها ؟!

قبل قليل وبعد صعود يارا لحجرتها لتنام.. كان أحد أقرباء ريتشارد قد زاره وسلمه ابنته وحقيبة ملابسها.. وأخبره همسًا في أذنه أن أهل القرية يتهامسون بوجوده في بيت سيدة مسلمة وحدهما في مكان مهجور بعيدًا عن الأعين.. فلم يتفهم ريتشارد الموقف جيدًا ويقدر حجم خطورته.. ولم يبالِ كثيرًا.. ولم يكن يخطر على باله أن تقوم تلك الجموع البشرية بالتجمهر حول المنزل بعد منتصف الليل محاولين اقتحام المنزل والقبض عليه وعلى يارا....

عنوة تمكن ثلاثة رجال أشداء من كسر باب البيت.. فما كان من ريتشارد إلا أن حمل طفلته التي لازالت ضعيفة واتجه فورا لحجرة يارا.. التي كانت تبكي في سريرها محتضنة ابنتها النائمة

بين يديها في استلام يذيب القلب.. فحملها عنها هي الأخرى وقرر أن يهرب بهن.. ابنته ويارا وابنتها.. وفور وصولهم لصالة البيت في الدور الأول قبض عليه الرجال.. فأختبأت يارا خلفه وهو لازال يحمل الطفلتين ويارا في شبه حالة هلع وعجز عن الكلام أو الإتيان بأي تصرف إيجابي كان أو سلبي...

قاما رجلان بسحب ريتشارد خارج المنزل ولكنه كان مقيد تمامًا حيث كان يحمل الطفلتين، ويارا خلفه متعلقة بكلتا يداها بطرف قميصه.. فلم يصدر أي مقاومة واستلم لهما ووقف حيث أرادا على عتبة البيت الرخمية ليواجه جمع غفير من أهل القرية.. وشعرت وقتها يارا بأن طرف قميصه هذا، هو طوق نجاتها الوحيد من بين بحر البشر هذا الذي اقتحم بيتها وغرقت به.. حتى عندما حاول أحد الرجال إبعادها عنه وجدت نفسها تلتصق به أكثر.. وكأنه آخر ملاذ أمان على وجه الأرض..

صمت ريتشارد دفع الناس للكلام.. فارتفعت الأصوات.. بجمل كثيرة غير مفهومة.. ف «ريتشارد» عندما يتحدث من أمامه بسرعة كبيرة باللغة العربية لا يفهم معنى الكلمات.. لقد امتنع بحكم حياته في الولايات المتحدة الأمريكية لسنوات طويلة عن ممارسة اللغة العربية.. أنه يفهمها جيدًا ويتكلمها بطلاقة ولكن عندما يتحدث إليه شخص واحد فقط وبصورة طبيعية..

فيارا أحيانا كانت تكرر له الكلمة أكثر من مرة ليسمعها جيدًا ويتذكر معناها.. لذا لم يفهم كثيرًا من شتائم أهل البلد له وحمد الله سرًا على هذا ليحتفظ بهدوئه والفتات الباقية من ثباته الانفعالي !

كان في يد الجميع مشاعل.. ماعدا هو و «يارا».. فعرف وقتها أن تلك هي النهاية.. لقد رش أهل القرية البيت بمواد قابلة للاشتعال السريع وهم في طريقهم لحرقه بأهله.. كانت الجموع من المسلمين والمسيحين.. كان الغباء واحدًا والجهل يقطر من الجميع .. تأملهم ريتشارد كثيرًا.. يريد فرصة فقط للكلام.. ولكن الغوغاء يصرخون فقط في وجهه ثم ينعتوه بأقزع الشتائم.. ويهددوه كما توقع بالموت حرقًا !

نظرت يارا للبيت لتجد جميع الأشباح خلفها يبكون.. أن أهل القرية لن يحرقوا مجرد بيت جمع رجل مسيحي بامرأة مسلمة في قصة إنسانية أغرب من الخيال.. بل سيحرقون تاريخ كامل جمع هؤلاء الأشباح الست.. سيحرقون بيت صنع ليضم جميع الحضارات والثقافات خلف جدرانه.. إنه أشبه بمعبد يصلح لكل الأديان.. إنه بيت اتسع رغم صغره لليهودية والمسيحية والإسلام على مر العصور واحترم ثقافة الاختلاف.. نعم هو بيت مهمل وغير مصان كما يجب ولكن به شيء خفي

يطمئنك.. به عبق وروائح بخور وروح وريحان وإنسانية إن اختفت من العالم وجدتها به.. هو ليس مجرد بيت!

بكاء يارا دفع الأشباح الست إلى حالة عظيمة من الفزع فاعتنق كل شبح منهج نافذة من نوافذ البيت وبدوا بالصراخ.. ولكن أحد لم يسمعهم أو يلاحظهم سوى يارا..

فاجتمعوا في السماء كهالات من نور ونار حول البيت لصنع سحابة مضيئة تدور بسرعة حول البيت عاليًا.. للفت نظر الناس ولكن الناس لم تنتبه كثيرًا لهم..

فاشارات لهم يارا أن ياتوا بفعل أشد قوة.. فبدأوا بالصراخ بصوت أعلى وفتح النوافذ وإغلاقها سريعًا وبقوة.. وأيضًا أبواب المنزل وغرفه.. وهنا فقط لاحظ الناس ذلك وخاصة أن «فارس» بدأ يضيء نور البيت ويغلقه بسرعة عدة مرات.. وفجأة هبت رياح عاتيه كادت تقتلع الناس من أرضية البيت.. ومعها دخان كثيف وغبار، وعندما انتبه الناس لذلك هالهم الفزع وتوقفوا فجأة عن إصدار أي صوت.. وهنا انتهز ريتشارد الفرصة ليخطب بالناس:

«انتم تعانون من رق نفسي.. اسمه العادات والتقاليد.. كل ما يؤلمكم سكني مع هذه السيدة في منزلها.. ولم يؤلمكم

حياتها وحيدة قبل مجيئ.. لم تسأل عنها نساءكم أو يهتم بخدمتها أحد من رجالكم أو أولادكم.. والآن جئتم مدافعين عن الشرف!.. أي شرف هذا الذي تتحدثون عنه وأنتم قد تجاهلتم تلك المرأة التي جاءت من بعيد لتعيش بينكم هربًا من مأساتها؟!.. نعم أنا عشت أكثر من نصف حياتي في بلد غير مصر.. ولكني جئت مصر لأنها بلدي التي لا أعرف غيرها.. أنا قرأت عن الأسلام.. وكنت أظن أن المسلم من سلم الناس من لسانه ويده.. حتى المسيحي منكم أتى متفرجا أو مجاملة لصديق.. هي تحتاج المال وأنا أدفع لها مقابل سكني في غرفة من غرف البيت.. وبيني وبينها الله.. ولم يكن ثالثنا ولو للحظة سوي الله.....»

متأخرًا وصلت الشرطة.. ووصل رجل صالح له هيبة ووقار.. يرتدي ملابس بيضاء.. وعبأته يصدر عنها عطر طيب مطمئن.. كل شكله كان يوحي برغد عيشه.. يبدو شيخ جامع أو كبير عائلة فرق الناس ثم اقترب من ريتشارد وربت على ظهره ومشي به إلى داخل البيت.. قائلاً «ريتشارد»:

«ابقى هنا وعلم الناس.. أنت نور يمشي على الأرض علم أطفالهم اللغة الإنجليزية وعلم آبائهم.. كيف يعودوا بشر؟!....»

هدأت الأحوال بعد أن هددت الشرطة باعتقال أي شخص تسوي له نفسه بتهديد الآمنين.. وانصرف الناس في لحظة خوفًا وطمعًا في الحفاظ على بيوتهم وأرزاقهم.. فلو حظرت الشرطة التجول بالقرية لفترة لجاع البعض الذي يحصلون على قوتهم يومًا بيوم...

وفي اليوم التالى أرد ريتشارد السؤال عن الشيخ الطيب الذي طيب خاطره وتكلم معه.. فسأل يارا عنه لعلها تعرفه فردت عليه:

«لم أرى أحدًا بهذه المواصفات.. عندما جاءت الشرطة أنت دخلت البيت وأنا دخلت خلفك.. لم يتحدث إليك أحد ولكنك أنت كنت تتحدث لشخص ليس له وجود فاعتقدت أنك متعب الأعصاب مما حدث....» !

فرد عليها ريتشادر:

«كفى مزاحًا يا «يارا».. هذا الشيخ الطيب الذي ظهر فجأة وفرق الناس.. كيف لم تقع عليه عينك؟!.....»

فردت يارا:

«أقسم لك.. لم يكن هناك وجود لهذا الشيخ.....»

عندما اختلت يارا بالأشباح الست قررت سؤالهم عن هذا الشيخ.. فقال لها فارس ضاحكًا:

«هو طيف طيب.. وهو أهم من امتلك تلك المسبحة التي وجديتها هنا في البيت ولكن روحه عابرة لا تقلقي....»

شفت يارا من أوجاعها ومن اعتقادها أن ريتشارد شبح ولكنها مازالت ترى الأشباح الست وتدعي عدم وجودهم أثناء وجود ريتشارد فقط.. رغم ملاحظته مؤخرًا غرفة المرايا التي لا تفتحها يارا أبدًا فهي البيت الصغير لأشباحها ولا تريد ازعاجهم...

●●●

الفهرس	الصفحة

مقدمة:..... ٥

المهنة شبح:..... ٧

زيارة للجحيم:..... ٤٧

شبح فوق العادة:..... ٦٧

حجرة المرايا:..... ٨٧

العهدة على الراوي:..... ١٠٩

حضرات السادة الأشباح:..... ١٢٩

هذا بيتي:..... ١٤٧

سأحكي مزحة ولكن لا تبكي:..... ١٦٥

الآله الأكثر شعبية:..... ١٨٧

رق نفسي:..... ٢٠٩

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر